

هل نزار قباني شاعر ملتزم؟!

بقلم: أ. أحمد الخوص

ثلاث سنوات.. وأنا دائخ وراء كلمة، وراء فَلْذَة كلمة.. أضيفها إلى ألوف الكلمات الحلوة التي صنعت أدب بلادي..

ثلاث سنوات وأنا أحمل بلادي في صدري. أخبئها في جفون كل حرف كتبته.. في كل نقطة حبر سفحتها على الورق.

ثم يأتي إليك من يقول: أين الوطن في شعر هذا الشاعر؟ الوطن مرسوم في كل فاصلة، في كل رشة حبر يتركها أديبٌ على الورق..

رائحة الوطن هي رائحة مدادنا.. وشواطئه وجباله وأقماره، ونجومه، وعيون نسائه هي بعض أبجدياته.

بلادنا مجموعة كلمات جميلة.

كلمة منك. وكلمة مني. قشة تحملها أنت. وقشّة أحملها أنا.. هكذا يصنع الربيع.

وأنا يسعدني، ألف مرة يسعدني أن أكونٍ عشبة صغيرة في هذا الربيع، أن أكون خطّا بين خطوط اللوحة الكبيرة التي ترسمها أصابعُ الموهوبين في بلادي.

وربما يتساءل المرء من أين جاء الالتزام في أدب نزار؟ فيجيبه قائلاً:

كان حي (الشاغور)، حيث كنا نسكن، معقلاً من معاقل المقاومة، وكان زعماء هذه الأحياء الدمشقية من تجَار، ومهنيين، وأصحاب حوانيت، يمولون الحركة الوطنية، ويقودونها من حوانيتهم ومنازلهم.

أبي، توفيق القباني، كان واحدا من أولئك الرجال، وبيتنا كان واحدا من تلك البيوت.

وطالما جلست في باحة الدار الشرقية الفسيحة استمع بشغف طفولي غامر، على الزعماء السياسيين السوريين يقفون في إيوان منزلنا، ويخطبون في ألوف الناس، مطالبين بمقاومة الاحتلال الفرنسي، ومحرضين الشعب على الثورة من أجل الحرية.

وفي بيتنا في حي "مئذنة الشحم" كانت تعقد الاجتماعات السياسية ضمن أبواب مغلقة.

وتوضع خطط الإضرابات والمظاهرات ووسائل المقاومـة، وكـنّا مـن وراء الأبواب نسترق الهمسات، ولا نكاد نفهم منها شيئاً.

ولـم تكـن مخيلتي الصغيرة في تلك الأعـوام مـن الثلاثيـنات قـادرة على وعي الأشـياء بوضوح، ولكنني حين رأيت عساكر الـسنغال يدخلـون فـي ساعات الفجر الأولى منزلنا بالبنادق والحراب، ويأخذون أبي معهم فـي سـيارة مـصفحة إلـى معـتقل "تدمر" الـصحراوي.. عرفت أن أبي كان يمتهن عملاً آخـر غيـر صـناعة الحلويات.. كان يمتهن صناعة الحرية.

كـان أبـي إذن يصنع الحلوى، يصنع الـثورة. وكـنت أعجبت بهذه الازدواجية فيه وأدْهـش كيف يستطيع أن يجمع بين الحلاوة وبين الضراوة..

ويـتحدث نـزار عن المثل الأعلى في حـياته، عـن والـده الذي ربّاه على الثورية فيقول:

كـان تفكيـر أبـي الثوري يعجبني.. وكنت أعتبره نموذجاً رائعاً للرجل الذي يرفض الأشياء المسلّم بها، ويفكر بأسلوبه الخاص.

وإذا كـان كل طفل يبحث خلال مرحلة طفولـته عن فارس، ونموذج وبطل.. فقد كان أبي فارسي وبطلي ومنه تعلمت سرقة النار..

ولا شـك أن نزاراً ثوري في الدرجة الأولـى حيـنما تـباح أرض أمـته وتـدنس مقدساتها ولا سيما إذا دخل رمح إسرائيل في عمق كرامتنا، يقول نزار:

"ليس في وظيفة الشعر أن يتحول إلى ذئب.. ولكن حين يدخل رمح إسرائيل إلى هذا المدى من كبريائنا.. وحين يسافر في أنسجتنا وأعـصابنا، ولا أحد يسأله إلى أين..؟ يصبح الشعر هجمة انتحارية.. على الطريقة اليابانية تدمر الأرض والسماء جميعا".

والدلـيل على ذلك أن نزاراً يترف في أحـد لقاءاتـه الـصحفية بخجله عندما ينظم قـصائد الحـب والغزل والوقوف على الأطلال وغيـر الأطلال وبلاده يتهددها الموت والدمار والاستعمار فيقول:

"سـأعترف لـك اعترافاً خطيراً، وهو أننـي أصـبحت أخجل من قصائد الحب.. أنا الـذي كـنت الـناطق الرسـمي باسم ملايين العـشاق.. كلما وقفت على منبر.. وخطر على بالـي أن أرطـب الجو بقصيدة حبّ.. قلت ما بينـي وبين نفسي: عيب.. يا ولد، أن الأرض تهتـزّ مـن حـولك.. والعـالم العربي تأكله الحـرائق.. وأنـت قائد تثرثر أنت وحبيبتك.. وتتغـزل بحرير يديها.. وخوخ شفتيها.. بينما النار وصلت إلى ثيابك..

أنـا بحاسـتي السادسة، اكتشفت أن زمن الـ "مارون جلاسيه" في الشعر انتهى.

العـالم العربـي طنجـرة بخار مهدّدة بالانفجـار بين لحظة وأخرى. وما يجري في بيروت منذ ثلاثة عشر عاما.. الحرب العراقية الإيـرانية.. ثورة أطفال الحجارة في فلسطين المحـتلة.. صـمت الـشاعر العربي الرهيب. سقوط الفكر الوحدوي، وازدهار الفكر المذهبي والقطري.. هل هذه التراجيديات الكبرى قابلة للتأجيل؟ هل يستطيع الشاعر العربي أن يختبئ تحت لحاف اللامبالاة.. ويرفع سماعة التلفون، ويلـبس بيجامـته الحريرية.. ويشرب فنجان يانـسون، ويقـول لخادمـته: إذا سـأل عني شـخص يـسمى الـتاريخ. قولـي له إنني مسافر..

ويـتحدث نزار أيضاً عن عملية الجلْد التـي بـدأها بـ "هوامش على دفتر النكسة" وأكدها بـ "بانتظار غودو" حيث يقول:

كثيـراً مـا سألني أصدقائي: إلى متى ستـستمر في عملية الجَلد العلنية التي بدأتها بهـوامش علـى دفتـر النَكسة وأكدتها في الممـثلون والاسـتجواب والخطاب والوصية وحـوار مـع أعرابـي أضاع فرسه وبانتظار غـودو، ألـيس هـناك أسـلوب آخر لتأريخ حزيران؟

وأنـا أسـأل بدوري: وماذا تغير من الواقع العربي حتى تستريح غضبي؟

وإن فلسطين لا تزال أرملة. والفرسان فـي إجازة طويلة.. وعصر ملوك الطوائف لا يزال مستمراً.. وسماسرة الكلام لا يزالون في

دكاكينهم.. يبيعون ويشترون في السوق السوداء..

كيف أكتب إذاً؟ وماذا أكتب، إذا كان حزيران بدأ يأخذ شكل عادة الإدمان.. ويتحول إلى يوم من أيام السنة.. كعيد الأم وعيد الشجرة..

آه.. لو كان العالم العربي على طائرة الهليكوبتر التي نقلت الفدائيين العرب مع رهائنهم إلى مطار ميونخ. آه لو كان العالم العربي مع هؤلاء الأبطال الخمسة الذين دخلوا الطائرة كجذوع أشجار السنديان، وخرجوا على نقالات الإسعاف، وعلى أجسادهم كتابة سماوية لا نعرف أن نقرأها.. لأننا نسينا قواعد الكتابة والقراءة.

ولكننا صفقنا ونحن جالسون في صالوناتنا المكيفة بالهواء للمغامرة، وانتهى الأمر.. شاهدنا الفيلم البوليسي على التلفزيون.. ونمنا..

لذلك أعتبر الجَلْدَ عن طريق الشعر من أخف العقوبات بالنسبة لعالم عربي مازال منذ حزيران عام ١٩٦٧ يتفرج على المسلسلات التلفزيونية ويتعاطى حبوب النوم، ونشرات الأخبار ومورفين "ما يطلبه المستمعون".

هذا هو العالم الذي أكتب عنه.. إنه عالم مصاب بالشلل النصفي وفقدان الذاكرة.

فإذا كنت قد صرخت بوجهه، هذا الصراخ الذي وصل إلي حد الهمجية، فلأن الإنسان لا يصرخ عادة إلا حين تكون مساحة الجرح أكبر من مساحة الطعنة، وكمية دموعه أكبر من مساحة عينيه..

ومن هذه العبوات ذوات الانفجار القوي استطاع نزار قباني أن يبدع شعرا ثوريا يقضي فيه على الخوف والذل والخنوع الذي عاشت به أمتنا العربية فيقول:

لأني لا أمسح الغبار عن أحذية القياصرهْ
لأنني أقاوم الطاعون في مدينتي المحاصرهْ
لأن شعري كلّه
حرب على المغول.. والتتار.. والبرابرهْ
يشتمني الأقزام والسماسرة..

ويشير في قصيدته إفادة في محكمة الشعر إلى أنه قد اخترق النفاق والمنافقين الذين يعيشون على موائد السلطان لأن كلامه سيف عربي مضيء:

ما احترفت النفاق يوماً.. وشعري
ما اشتراه الملوك والأمراءْ
كل حرف كتبته.. كان سيفا
عربيا، يشعُّ منه الضياءْ
كم أعاني مما كتبت عذابا
ويعاني في شرقنا الشرفاء
كل من قاتلوا بحرف شجاع
ثم ماتوا.. فإنهم شهداءْ
لا تعاقبْ، يا ربِّ من رجموني
واعف عنهم، لأنهم جهلاءْ
من جراحِ المناضلين وُلِدْنا
ومن الجراحِ تولدُ الكبرياءُ

والشعر ليس مهمته النفاق الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي، وإنما مهمته الغضب على النائمين السُّذج الذي لا يقدرون قيمته الخالدة، وعلى المتزلفين المهرولين. يقول نزار موضحاً قيمة الشعر الحقيقية: في قصيدة "من مفكرة عاشق":

الشعرُ ليس حمامات نطيّرها
نحو السماء، ولا نايا وريح صَبا
لكنه غضبٌ طالت أظافرُهُ
ما أجبن الشعر، إن لم يركبِ الغضبا

ويقول مخاطباً فلسطين الجريحة، فلسطين السليبة، فلسطين المأساة في القصيدة نفسها:

تلفّتي: تجدينا في مباذلنا
من يعبدُ الجنسَ أو من يعبد الذهبا
فواحدٌ. أعمت النعمى بصيرتَهُ
فللخنى.. والغواني.. كل ما وهبا
وواحدٌ.. ببحار النفط مغتسل

قد ضاق بالخيش ثوباً، فارتدى القصبا
وواحدٌ.. نرجسيٌّ في سريرته
وواحدٌ.. من دم الأحرار قد شربا
إن كان من ذبحوا التاريخ.. هم نسبي
على العصور، فإني أرفض النسبا..

وبين الالتزام والحرية صداقة مستمرة، فلا يستطيع الالتزام أن يعيش بلا حرية، ولا الحرية بلا التزام، يقول في قصيدته حوار مع ملك المغول، مخاطباً زوجته وأصدقاءه وشعبه:

أريد أن أقول كلمتينْ..
لزوجتي الحامل من شهورْ..
وأصدقائي كلهمْ
وشعبي المقهورْ
أريد أن أقول: إني شاعرٌ..
أحمل في حنجرتي عصفورْ..
أرفض أن أبيعهُ..
وأنت من حنجرتي..
تريد أن تصادر العصفور..

والالتزام – وإن كانت له جذور في الماضي – هو منشور حيٌّ ألقى به الأدباء في ليل مظلم ليذبحوا التخلف، ويقضوا على الجهل بالكلمة الصادقة الأمينة على أوسع نطاق، وما نزار إلا واحدٌ من هؤلاء حيث يقول في قصيدته إفادة في محكمة الشعر:

نرفضُ الشعر أن يكون حصانا
يمتطيه الطغاةُ الأقوياءْ
نرفضُ الشعر عُتْمَةً ورموزاً
كيف تستطيع أن ترى الظلماءُ
نرفض الشعر أرنباً خشبياً
لا طموحٌ له ولا أهواءُ
نرفض العاطلين في قهوة الشعر
دخانٌ أيامُهم وارتخاءُ
شعرُنا اليوم يحفر الشمس حفراً
بيديه.. فكل شيء مُضاءْ
كلُّ شعرٍ معاصر.. ليس فيه
غضبُ العصرِ نملةٌ عرجاءْ

وإذا كان حبُّ الوطن من الإيمان كما جاء في الحديث الشريف فإن وطن العرب مثخن بالجراح العميقة منذ معاهدة سايكس – بيكو التي قسمت الوطن العربي إلى مناطق نفوذ لإنكلترا وأخرى لفرنسا ووهبت فلسطين لليهود تنفيذاً لوعد بلفور وحتى النكبة وما بعدها، وما بعد النكسة، وحتى حرب تشرين وما بعدها، ومازال هذا الوطن صابراً على مضض، يقول نزار قباني مخاطباً هذا الوطن الكبير في قصيدة تعريف غير كلاسيكي للوطن:

وطني!
يفهمُك السذّج ريحاناً وراحْ
ويظنونكَ درويشاً يهزُّ الرأس..
أو رقص سماح..
ويظنونك في غفلتهمْ
نغمةً من بُزُقِ..
وقناني عرقٍ..
ومواويل تغنى للصباحْ
وطني!
يا أيها الصدر المغطى بالجراحْ
وطني..!
من أنت؟ إن لم تنفجرْ
تحت إسرائيل، صندوقَ سلاحْ..

والنكسة التي حلت بالأمة العربية في السادس من حزيران عام ١٩٦٧، كانت اللعنة التي مزقت قناع الزيف المختبئ وراءه أصحاب السلطان والقوة والمال، وأصبح لزاماً علينا أن نقضي على التفكير القديم ونكنس من عقولنا المفردات والأمثال والحكم المهترئة القديمة إذا ما أردنا الانتصار، يقول نزار في قصيدته خطاب شخصي إلى شهر حزيران:

كن يا حزيرانُ انفجاراً..
في جماجمنا القديمة..
كنسْ ألوفَ المفردات،
وكنّس الأمثال، والحكمَ القديمهْ
مزّق جلد أوْجهنا الدميمهْ..
وكن التغيُّر والتطرّف..
والخَروجَ على الخطوط المستقيمهْ..

أطلقْ الرصاص على الماضي الرّصاصَ..
كن المسدَّس..
والجريمهْ..

وإذا كان المنفلوطي يعتبر أن المتخمين في الأرض يأكلون الطعام المحرومين فيها، والمتخمون يجمعون الأموال بلا عدٍّ والقصور بأبهى أنواع الزركشة والزخرفة، فهذا نزار قباني يخاطب المتخمين قائلاً في قصيدة "الحب والبترول":

متى تفهمْ؟
أيا جملاً من الصحراء لم يُلجمْ..
ويا من يأكل الجدَريُّ منك الوجه والمعْصمْ..
بأني لن أكون هنا..
رماداً في سيجاراتكْ
ورأساً.. بين آلافَ الرؤوس على مخداتكْ
وتمثالاً تزيد عليه في حمى مزاداتكْ
ونهداً فوق مرمره.. تسجّل شكلَ بصماتكْ..
متى تفهمْ؟

* * *

متى تفهمْ؟
بأنك لن تخدّرني..
بجاهك، أو إماراتكْ..
ولن تتملّكَ الدنيا..
بنفطك.. وامتيازاتكْ
وبالبترول، يعبق في عباءاتكْ.
وبالعربات تطرحها على قدمي عشيقاتكْ
بلا عدو.. فأين ظهور ناقاتكْ؟

وفي قصيدته حوار ثوري مع طه حسين يخاطب فيه هذا الأديب الكبير الذي حمل الشقاء والألم والبؤس ليبدلها إلى نور يضيء الليل المدلهم أمام الأجيال العربية المتعاقبة:

آه يا سيدي الذي جعل الليلَ
نـاراً.. والأرض كالمهرجان..
ارمِ نظارتيك كي أتملا
كيف تبكي شواطئ المرجانِ..
ارمِ نظارتيكَ ما أنت أعمى
إنما نحن جوقة العميان..

* * *

أيها الغاضبُ الكبيرُ.. تأملْ
كيف صار الكتّابُ كالخرفانِ
إن أقسى الأشياء للنفس ظلماً
قلمٌ في يد الجبان الجبان..
يشترون النساء.. هل ثمّ شار
لدموعِ الأطفالِ في بيسانِ؟

وقضية فلسطين فجرت الأوضاع والأنظمة والحكومات بعد أن احتله الصهاينة، هذه الأرض المقدسة، وكانت نظرة الشاعر نزار قباني ثاقبة الأبعاد، واسعة الملامح، فقد رأى أن نضال المناضلين وكفاح المكافحين هو العملة الوحيدة التي تسترجع الأرض وتحرر الإنسان وتستعيد الكرامة يقول نزار:

من جراح المناضلين وُلدْنا
ومن الجراح تولد الكبرياءْ
قبلهم؟ لم يكن هناك قبلْ
ابتداء التاريخ من يوم جاؤوا
هبطوا فوق أرضنا أنبياءً
بعد أن مات عندنا الأنبياءْ
أنقذوا ماء وجهنا يوم لاحوا
فأضاءت وجوهنا السوداءْ
منحونا إلى الحياة جوازاً
لم تكن قبله لنا أسماءْ
أصدقاء الحروف لا تعذلوني
إن تفجّرتُ، أيها الأصدقاءُ

هذه بعض الملامح للشعر الملتزم عند نزار قباني، غيض من فيض، عالج فيه شاعرنا الالتزام كقضية وطنية وقومية واجتماعية وإنسانية، وهذا لا ينقص من قدره إذا كان والده ثرياً أو غنياً كما يزعم بعض الأدباء والنقاد وكلنا يعلم أن كارل ماركس كان من طبقة برجوازية كبيرة ومع ذلك فقد قام بالثورة الشيوعية ودعا إلى نصرة العمال والفلاحين وظلت مبادئه تحكم الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية، لم يُعيَّر بأنه برجوازي إلا أننا في وطننا العربي، لا نفتش إلاّ على النقص بلا عوض ولا حياء..




فراشة..

شعر: مدحة عكاش

حنانَيْكِ رُدِّي عن عيوني فتنةً
ملكْتِ بها قلبي وضاعَ بها رُشْدي

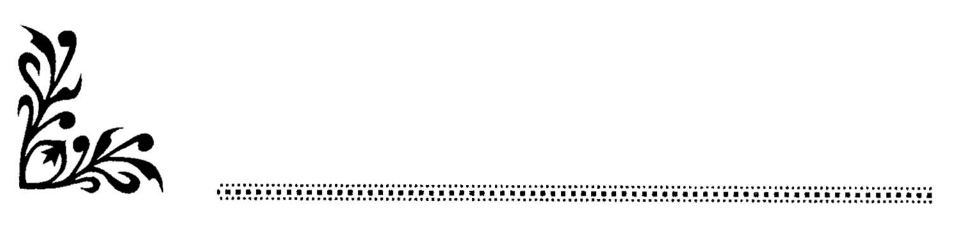
سألتُكِ باللونِ المشعْشعِ وزَّعتْ
أناملُ ربيّ منهُ في صفحةِ الخدِّ

وبالشفةِ اللمياءِ، يا طيبَ ما حَوتْ
مِنَ الأملِ الورديِّ والفاتنِ الوردي

سألتُكِ في إبداعِ ربِّي بمقلةٍ
بها رفرفَ الأيّامِ والطالعِ السّعدِ

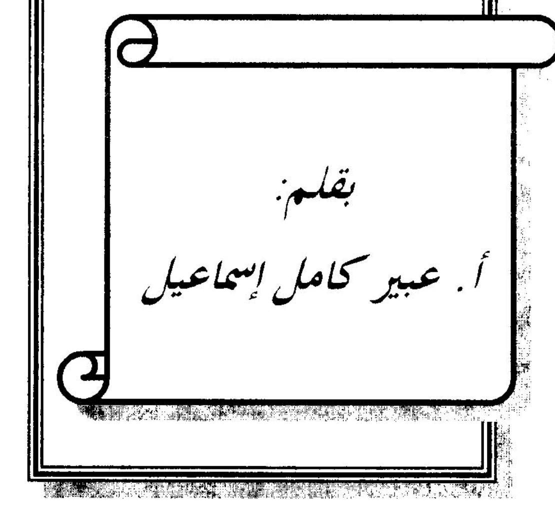
دعيني، فما مثلي على الحبِّ قادرُ
فإنْ مهجتي أخفَقتْ، فذي مقلتي تُبدي

كأني وكلُّ الناسِ جفَّتْ قلوبُهُم
وحُمِّلْتُ وِزْرَ الحبِّ مِن دونهم وحدي




أبو العلاء المعرّي بين الحرّية والسّجن

ألقيت في مهرجان أبي العلاء المعري التاسع الذي أقيم في معرّة النعمان (٢٥-٢٩ أيلول ٢٠٠٥)



بقلم:
أ. عبير كامل إسماعيل

عاش أبو العلاء المعريّ في ظرف سياسيٍّ واجتماعيٍّ صعب، كانت الدولة العربية قد بلغت مرحلةً كبيرةً من التمزّق السياسيّ، فبغداد خاضعةٌ للأسرة البويهيّة، والخليفة العباسيّ مجرّد ألعوبة في أيدي أمراء تلك الأسرة، وحلب تعيش مآسي الصّراع الطّاحن في ظلّ ثلاث دول اقتتلت للسيطرة عليها هي الدولة الحمدانيّة والفاطميّة والمرداسيّة، وكثيراً ما كانت الدولة المهزومة تلجأ للاستعانة بالرّوم واستنصارهم للحفاظ على العروش ممّا ترتّب عليه سوءٌ في الحالة الاقتصادية، إذ تفشّت المجاعات، والسّلبُ، وسوءٌ في الحالة الاجتماعية والأخلاقية، وانقلابٌ في الموازين والقيم إذ ساد الفساد والفحْش والرياء، وغدا الدّينُ طقساً اجتماعياً مفرغاً من محتواه الروحيّ، وقيمه النبيلة كالفضيلة والصّدق وقول الحق. غير أنّ الوضع الفكريّ كان على عكس ذلك، فقد نضجت العلوم اللغويّة والفلسفيّة وبلغت أوجها إذ حضرت المدارس الكلامية والفقهية والصوفية بقوّة، إضافةً إلى نزول الباطنية بكلّ ثقلها إلى حلبة الفكر.

كانت هذه هي الحياة العامة التي نشأ فيها المعري، وأمّا حياته الخاصّة فكما يعلم الجميع أنّه فقد بصرهُ إثر إصابته بالجدريّ، وأنّه قام بعدّة رحلات إلى اللاذقية وحلب وطرابلس ثم إلى بغداد، وخلال ذلك اطّلع على الفلسفات وعلم اللاهوت، وقرئت عليه الكتب فحفظها، وأخيراً عاد إلى المعرّة، فاعتزل الناس وزهد في الدنيا ولزم بيته واكتفى بلقاء طالبي العلم وزائريه من أصقاع أمّة الإسلام الذين غصّت بهم المعرّة.

إنّ تلك الظروف مجتمعة هي التي ساهمت في جعل الرّجل على ما كان عليه من علمٍ وخُلُق إذا أضفنا إلى ذلك عبقريّته وذكاءه.

لقد نظر المعريّ إلى الناس من حوله فوجد أنّهم سجناء لأطماعهم وغرائزهم وشهواتهم، سجناء التقليد والخوف من كل

سلطان. فرفض هذه السّجون ووصف لنا سجوناً أخرى فرضتْ عليه أو ألزم نفسه بها، لكنّها إذ كبّلت مشيته وهو الرّجل الأعمى، وكبّلتْ جسده العائد إلى التراب لم تكبّل روحه ولا عقله.

يقول المعريّ:

أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسد الخبيث

فالشّاعر سجين العمى، والبيت والروح داخل الجسد، وأضاف هو إلى ذلك إلزامه شعره بأكثر من رويّ، وامتناعه عن أكلِ اللّحم.

لكن من الواضح أنّ أبا العلاء في هذين البيتين، وفي كلّ الأبيات التي يصف فيها المحَن التي حلّتْ به لم يكن راغباً في استدرار عطف الآخرين بعرض معاناته، بل لكأنّي به يتحدّى عقول الناس ويطالبهم بقراءة ما وراء قضبان الكلمات وبين السّطور، فهو الذي كبّل بتلك القيود لم يخضع للسّلطان السياسيّ أو الاجتماعي المتواضع عليه أو الدينيّ بكلّ طوائفه ومذاهبه ومنازعاته، كان السّلطان الوحيد الذي أخضع نفسه له هو سلطان (العقل) وكل سبيله إلى ذلك الشّكّ والسؤال الملحّ.

لقد استطاع أبو العلاء أن يخلق لنفسه - وضمن الأطر التي حُدِّدَ بها - عالماً يعبّر فيه عن غضبه وثورته وآرائه ومعتقداته بعيداً عن الخوف. فالعمى يتحوّل إلى نعمة لأنّه حفظ له إنسانيته وعصمه من رؤية الشرور من حوله.

يخاطب نفسه مظهراً فضيلة عدم رؤية الناس:

أبا العلاء ابن سليمانا
عماك قد أولاك إحسانا
إنّك لو أبصرتَ هذا الورى
لم يرَ إنسانك إنسانا

ويذهب الشاعر إلى أبعد من ذلك فيعمدُ إلى صور يقال إنّه رآها بعيني غيره أو مشى فيها مقلّداً، على خطا من سبقوه، لكنّه استطاع من القديم أن يستنبط الجديد لدرجة تنسي القارئ أنّه أمام رجل أعمى، وقصائده في وصف الدروع تشهد له بذلك، وسأكتفي بإيراد بعض أبيات تظهر الموهبة الفذّة التي كانت لتستحضرُ لهُ أبعاد الأشياء التي لم يقع عليها بصره.

يقول في وصف فتىً تقرّحتْ جفونه من السّهر:

إذا ما اهتاج أحمر مستطيرا
حسبْتَ اللّيلَ زنجياً جريحا

وفي وصف الشمس:

بيومٍ كأنّ الشّمس فيه خريدةٌ
عليها من النّقع الأحمّ لثامُ

وفي موضعٍ آخر يصف شارب الخمرة:

تطلّع من جدار الكأس كيما
يحييَّ أوجُهَ الشَّرْب الكرام

وأمّا بيته وهو سجنه الثاني فقد استطاع أن يحوّله إلى روضة من رياض العلم يستقبل فيه طلاّبه من كلّ حدَب وصوب، وأمّا روحه فقد حرّرها من سجن الحبس عندما نأى بجسده عن الملذّات والخبائث ومتع الدنيا فارتقى بروحه من كلّ ماديٍّ محسوس إذ

جعلها تعتنق العقل وتعتصم بحبله بعيداً عن القيود كلّها.

فالمعريّ لم يعتبر أنّ هناك سؤالاً محرّما على العقل، ولم يأخذ بالمسلّمات لأنّها تحرم الإنسان من النور الإلهيّ الذي وهبه له وهو (العقل) الذي يدعو النّاس للأخذ بأسبابه:

خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه

ولا يرجونّ غيرَ المهيمن راجِ

ولا تطفئوا نور المليك فإنّهُ

ممتّعٌ كلٌّ من حجىً بسراج

وقد لقي من جرّاء ذلك ما لقي من اتهام بالكفر والإلحاد، فهل يعتبر من يطالب الناس بتحرير عقولهم من الجمود وترك التقليد وعدم التسليم بأمرٍ قبل عرضه على العقل، والاقتناع به ملحداً؟! أليس العقل هو أحبّ المخلوقات لله؟! وأيّا كان سبب إيمان المعريّ بإمامة العقل، فأبسط ما يقال أن الإسلام هو دين العقل، وقد أتى في حديث نبويّ مسند إلى الرسول ﷺ: ((لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبلْ فأقبل، ثم قال له: أدبرْ فأدبر. ثم قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحبّ، أما إنّي إيّاك آمرو إياك أنهى وبك أعاقب وبك أثيب)).

والمعرّي لا يدّعي أنّه يعرف حقيقة الأشياء، أو يمتلكها، بل هو أشبه في أسئلته بلسان الإنسان الناطق وضميره الذي يهفو إلى المعرفة:

سألتموني فأعيتني إجابتكم

من ادّعى أنّه دارٍ فقد كذبا

ولعلّ غايته من تساؤلاته هو تحريضُ السؤال لدى المتلقين، وكسر قيود التقليد وإخراج الناس من سجون الجهل وأخذ الكلام بظاهره.

ونستعرض بعض الأمور التي تطرّق لها شيخ المعرّة طالباً الجواب، أو باحثا عن اليقين، فهو ينظر إلى الناس وأحوال الموت والحياة والشقاء والسعادة في الدنيا فتقضّ مضجعه الحكمة التي أرادها اللّه من خلق البشر:

اللّه صوّرني ولست بعالمٍ

لِمَ ذاك؟ سبحان القدير الواحد

ثم ينتقل إلى الخلق فيرى أنّ الأخذ بالقدرية أو الجبرية المطلقة يوصله إلى الكفر بالعدالة الإلهية، فيقف متسائلا عن حقيقة المبدأين:

لعلّ نجوم اللّيل تُعملُ فكرها

لتعلم سرّا فالعيون سواهدْ

خرجت إلى ذي الدّار كرْها ورحلتي

إلى غيرها بالرّغم والله شاهد

فهل أنا فيما بين ذنيك مجبرٌ

على عمل أم مستطيعٌ فجاهدْ

وينظر إلى تعدُّد الأديان والمنازعات بين أتباعها فكلٌّ يدّعي الحقيقة لنفسه وينفيها عن غيره، فلا يجلب ذلك إلاّ الفتنة والشقاق، وهنا يمزج المعرّي سؤاله بسخرية مؤلمة:

في اللاذقية فتنةٌ

ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يدقّ

وذا بمئذنة يصيح

كـــــلٌ يمجّـــــدُ ديـــــنه

يــا لــيت شـعري مــا الـصّحيح؟!

وتــستمرّ سـخريته عـندما يرى أنّ الأديــان التي تهدف لإصلاح الناس وإسعادهم وإيـصالهم إلــى طريق الخير والرّشاد وتترى وتذهب ويبقى البلاء قائماً:

لقــد حُجــبَ الــدينُ والــضياءُ

وإنّمـــا دينُـــنا ريـــاءُ

كــم وعــظ الواعظــون مــنّا

وقـــام فـــي الأرض أنبـــياءُ

فانـــصرفوا والـــبلاء بـــاقٍ

ولـــم يـــزلْ داؤك العـــياءُ

ويـزداد المعريّ رفضاً لانقسام أتباع الـدين الواحد إلى شيعٍ وفرقٍ تقتتل باسم هذا الـدين، ممّا يزيد الأمّة ضعفاً وتمزّقاً ولذا على العاقل الوقوف منها موقف المتردّد مادامت تلك الخلافـات ليست في الأصول الأساسية للدّين وهي الاعتقاد بوجود الله:

شـيعٌ أجلَّـتْ يـوم خـمٍّ وانثـنتْ

أخـرى تعارضُـها بـيومِ الغـارِ

وأمــا نظريات الأديان التي وجد فيها تناقـضاً رغـم أنّ الهدف واحدٌ تدفعه للوقوف عـندها وقفة المشكك المتّهم، إذ يضعُ مقياسه العقلـيّ أمام التباينات التي لا يجد لها تفسيراً فيحكم عليها جميعها حكماً قاسياً:

عجـــبت لكـــسرى وأشـــياعه

وغـــسل الوجـــوه بـــبول البقـــرْ

وقـــول النّـــصارى إلـــهٌ يـــضامُ

ويظلـــمُ حـــيّاً ولا ينتـــصرْ

وقـــول الـــيهود إلـــهٌ يحـــبُّ

رشـــاش الـــدّماء وريـــحَ القتـــرْ

وقـــوم أتـــوا مـــن أقاصـــي الـــبلاد

لرمـــي الجمـــارِ ولـــثْمِ الحَجـــرْ

فواعجـــباً مـــن مقـــالاتهمْ

أيعْمـــى عـــن الحـــقِّ كـــلُّ البَـــشرْ

ثـم ينعى على الناس اعتناقهم الأديان بالعـادة والتقليد لا بالعقـل، فيندفع بأسلوبه السّاخر، الغاضب، المتولّد عن ثورة تعتمل في وجدانـه إلـى الدعـوة للتفكير، والبحث عن الأسباب، حتى القول بوحدانية الله، إذ لا فضل للمـرء فـي أخذ الأحكام والتوجّهات الجاهزة حتى لو كانت صحيحة:

فــي كــلِّ أمــركَ تقلــيدٌ رضــيت بـه

حتـــى مقالُـــك ربّـــي واحـــدٌ أحـــدْ

وفي مكانٍ آخر:

عاشــوا كمــا عــاش آباءٌ لهم سلفوا

وأورثــوا الـــدّينَ تقلــيداً كما وجدوا

فمــا يــراعون مــا قالوا وما سمعوا

ولا يــبالون مــن غــيٍّ لمــنْ سجدوا

إنّ الدارس لأدب المعريّ يدرك أنّه لم يجحـد اللّه، ولم ينكره، وإنّما جرأته نابعةٌ من اعـتداده بالعقل وتسليمه به، ومن روح نبيلة أرادت أن تـسبرَ أغـوارَ الحقيقة فإذا بالأمور الدخيلة على الأديان تتكشّف لها، والإيمان عند المعـريّ لـيس في العبادات، ولا في التكاليف وأداء الفروض وإنّما هو أن يعمرَ قلبُ الإنسان بحـبِّ الآخـرين ويتـرك الشّرّ ويتتبّع طريق الخير، وكأنّه في ذلك سيتذكر الحديث الشريف ((الدّين المعاملة)):

ما الخيرُ صَوْمٌ يذوب الصَّائمون له
ولا صـلاةٌ ولا خـوفٌ على الجسد
وإنّمـا هـو تـرك الـشرّ مُطَّرحاً
ونفـضُكَ الصّدرَ من غلٍّ ومن حسَد

وبعد هذا كلّه لم يسلم من حسد الناس وافتـرائهم عليه، واتّهامه بالإلحاد والكفر في محاولـة للغـضّ مـن مكانته أو علمه، فهم الجهّال الّذين يأخذون كلامه بظاهره ويجتزئون مـن قصائده ما شاؤوا من الأبيات، ويبْتسرُون دراسـة المعانـي التي تهدفُ لها ليصلوا إلى تكفيـر الـرّجل، لكـنّه ينأى بنفسه عن الرّدّ، وينشغل عنهم بعبادة ربّه:

غُـريَتْ بذمّـي أُمّـةٌ
وبحمْـد خالقهـا غُـريتْ
وعـبدْتُ ربّـي مـا اسـتـ
ـطعْـتُ ومـن بـريّته بـريتْ
وفرَتْنـي الجُهّـالُ حـا
سـدةً علـيَّ ومـا فَـريْتُ

ولهـذا يطلب المعرّي ألاَّ تؤخذ معانيه بالتفكير العامّ الشّائع، وأن ينظر إلى المجاز في قصائده لاستخلاص أركان فلسفته:

لا تقـيّدْ علـيَّ لفظـي فإنّـي
مـثلُ غيـري تكلّمـي بالمجـاز

ولـو أخـذنا مـثلاً على تفسير أبيات المعـرّي بظاهرها لاكتشفنا قصور الناس عنه وهـم الـذين تفوّقوا عليه بالبصر فناف عليهم بالبصيرة:

قلـتم لـنا خالـقٌ قـديمٌ
قلـنا صـدقتم كـذا نقـول
ثـم زعمـتُمْ بـلا مكـان
ولا زمـان ألا فقولـوا
هـذا كـلامٌ لـه خبـيءٌ
معـناهُ ليـست لـنا عقـولُ

وهذه الأبيات ومثيلاتها تتّخذ حجّةً ضدّ المعـريّ لاتهامه بالكفر، وحتى المدافعون عنه يبـرّرون ذلك بقولهم إن مثل هذه القصائد هي من وضع خصومه في محاولة للنيل منه.
لكـنْ بالنظـر إلـى الأبـيات نجد أنّ المعـريّ لا ينكـر وجـود الله، وإنّما هو يقرّ صفات لله وينفي غيرها، ففي البيت الأول يثبت صـفة القدم للخالق، وفي البيت الثاني يرفض قـو بعـض المذاهب أنه (بلا زمان ولا مكان) وقـد يفـسّر مـا سبق الرأي الذي وصل إليه الشيخ عبد اللّه العلايلي في كتابه (المعري ذلك المجهـول) أنّ المعري ذهب إلى القول "بالقدم الذاتـي، والقدم الزمانيّ أو الدهر، وبالحدوث" وأنّـه رفض القول (بلا زمان ولا مكان): "لأنّ الـزّمان يعّيـنه الواحد وهو بأفقه فوقه، وذلك لأنّ الزمان ليس الحركة بل الالتقاء، وليس في أفـق الواحد التقاءٌ وإنّما هو انجذابٌ ومماسةٌ من قرب فقط".
وفـي كـلام المعرّي تنزيه عن حدود الـزمان والمكـان، وربّما يحيلنا ذلك إلى قول للإمـام علـيّ (عليه السلام) عـندما سُئل عن الله قال: ((لـيس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج)) وبالعودة إلى معظم أبيات المعريّ التي يتعرّض فـيها لاعتقاداته وإيمانه نجد أنّ عرضها على العقل يعطيها معانيا لا تظهر إلا إجلال الشّاعر لخالقـه وتنـزيهه لـه، لقد فتح المعرّي أمام العقـول أبواباً كثيرةً لكنّه تركها مواربةً، فمن شـاء أن يـدخلها ومن شاء بقي عند أعتابها ليـتّهمه بالكفر، وهو لم يضع لاستخدام العقل

حـدوداً، ولم يهتمّ بكل ما يمكن أن يتعرّض له مـن هجـومٍ أو اتّهامٍ ما دام يرضي عقله في النهاية.

ولم يقف أبو العلاء عند حدود الدين، بـل أرَقـه الـنفاق الـذي كان مستشرياً في المجتمع وازدواجية الناس وإظهارهم غير ما يبطـنون، فلـم ينج ممَّن اتّهمه بالكره والحقد على الآخرين كما فعل مثلاً الدكتور زكي مبارك فـي مقالة له بعنوان (هل زهد أبو العلاء في أكـل اللّحـم؟ هذا تمويهٌ وتضليل. كان الرّجل يتحـرّج مـن لحم الطّير والحيوان ولكنّه كان مـولعاً بأكـل اللّحم المحرّم، لحم الإنسان، فما تـرك فئةً ولا جماعةً إلاّ انتاش لحمها بأنيابٍ حداد).

وإذا تجاوزنـا قضية امتناعه عن أكل اللحم والمناظرات التي جرت حول ذلك، ووقفنا عـند قـضية انـتقاده لمجتمعه لننظر إلى تلك الفئات التي انتاشها المعرّي بأنيابه ولنتساءلْ: هـل تستحقّ تلك الفئات رحمةً منه؟! هل كان جائراً في حكمه عليها؟!

لقـد زخرت قصائد أبي العلاء بهجاء المنافقـين والمدّعـين، فـيعلن سخطه عليهم وعلى الدنيا التي امتلأت بهم. يقول ذامّاً رجال الـدين الذين يظهرون التنسُّك والعبادة وينهون عمّـا يأتـون بـه خفـيةً، أو يتاجرون بالدين ويستخدمونه وسيلةً للتكسّب:

رويـدك قـد غـررت وأنـت حرٌّ
بـصاحب حـيلة يعـظ النّـساء

يحـرّم فـيكمُ الـصّهباءَ صُـبحاً
ويـشربُها علـى عمَـد مـساء

وفي مكان آخر:

ولا تطـيعنّ قـوما مـا ديانـتهم
إلاّ احتـيالٌ علـى أخْـذ الأتـاوات

كمـا وجـد شـيخ المعرّة أنّه ما من أصحاب ديانة تقيّدوا بما يمليه عليهم الدين من حـبٍّ وتـسامحٍ وصـدق فثَلبَهُمْ جميعَهم، بل واعتبرهم شهوداً على صحّة قوله:

مـا أسـلم المـسلمون شـرّهمْ
ولا يهـودٌ لـتوبةٍ هـادوا

ولا النّـصارى لديـنهم نـصروا
وكلّهـم لـي بـذاك أشـهادْ

ورغـم أنّ المعـريّ لـم يتحدّث في كـتاباته عن النظام السياسيّ الذي يراه أجدى إلاّ أنّـه اتّجـه إلى ساسة عصره فوجدهم قد استعبدوا الناس، ونسوا أنهم يجب أن يخدموا مصالح رعيّتهم، فجعلوا من العوام خدّاماً لهم، وتعالـوا عليهم، فكان شرفهم في ملكهم ولذلك أعمل سيف كلمته فيهم:

مَـلَّ المُقـامُ فكـم أعاشـرُ أمّـةً
أمـرتْ بغيـر صـلاحها أمراؤها

ظلمـوا الـرّعية واستجازوا كيْدها
فعـدوا مـصالحَها وهـم أجراؤُها

وهـم يَعمهُـون فـي غـيّهمْ، فتغدو الـسياسة لـديهم هـي الظلـم والقهر اللذان يمارسانها على الناس:

يـسوسون الأمـور بغيـر عقـل
فيـنفذ أمـرُهمْ ويُقـال ساسـه

فـأفٍّ مـن الحـياة وأفٍّ منـي
ومـن زمـن رياسـتُهُ خـساسه

ثـم يأخـذ علـى الرّعية استسلامها ومباركتها لظالميها رغم كلّ ما تلقاه منهم من عسف وجور:

يدعـون فـي جُمُعـاتهم بـسفاهة

لأميـرهم فـيكاد يبكـي المنبـر

وأبو العلاء ينذر الملوك ويذكّرهم بأنّ الدهر غالبهم وأنّ بقاءهم على عروشهم ليس أبديًا:

وأرى الملوك ذوي المراتب غالبوا

أيـامهم فانظـرْ بنفـسكَ من غلبْ

لقـد تـساءل الـشاعر في أمر الدين والخلْق والتكوين، فاتّهم بالكفر والإلحاد وانتقد بجـرأة مجـتمعه وناسـه والنفاق فيه. فاتّهم بالقـسوة والحقد، غير أنّ المتبصر في شعره يجد أنّ قسوته تشبه قسوة الأم على ابنها، أو كمـا يقـول الأسـتاذ علـي الجندي في كتابه (الجامع في أخبار أبي العلاء ج١): "هي قسوةٌ ولـدتها الرحمة لأنه لا يريد أن يكون الإنسان ذئبا في مسلاخ إنسان" فالمعريّ يظهر أنّ أحد أسـباب شـقائه أنـه غير قادرٍ على مساعدة الإنسان وإنقاذه:

أنَـا الـشقي بأنـي لا أطـيق لكم

معـونةً وصـروف الدهر تحتبس

وحتـى التشاؤم الذي أصبح لصيقاً به لـم يكـن نابعا من ظروفه الخاصّة، فكثيرٌ من الـشعراء والأدبـاء لـم تمنعهم عاهاتهم من الإقـبال علـى الدنيا، غير أنّ سقوط القيم كان باعـثا لـرفع حـسّ المأساة لديه، إضافةً إلى بـصيرته الثاقـبة، وتركه الملذّات وترفّعه عن الماديات وسعيه الدائم وراء الحقيقة خلق لديه قلقـاً مـستمراً وحركةً دائبةً في نفسه، وتوقاً للمعرفة لا يُحدّ، ولعل هذا ما أشار إليه المتنبي بقوله:

ذو العقـل يـشقى في النعيم بعقله

وأخـو الجهالـة في الشقاوة ينعم

أخيـراً: يقـول المعـرّي فـي كتابه (الفـصول والغايـات): "كـنْ حرّا وانزل حيث شـئت ولو بحرّة النار، فإنّ رعاية الله شاملة الأحرار".

لقـد كان المعريّ حرّا، وواجه نيران الحسد والتكفير ومحاولة النيل منه، ورغم كلّ ذلـك لـم يتـنكب الخـوف حجّةً للتخفيف من تساؤلاته أو من محاولاته خرْق المحرّمات، بل التزم جانب العقل لأنّه به لن يخسر ولن يعادي إلاّ الجهّال.

والآن وقد مرت قرابة الألف سنة على وفـاة المعريّ، حيث أغمض عينيه الكليلتين، مازالـت الأقلام تتنافس لتعرف ماذا أراد شيخ المعـرّة، وهـو راقد غير آبه لمادحٍ أو ثالب، وكأنّي به يستدعي قول المتنبيّ:

أنـام مـلء جفوني عن شواردها

ويـسهر الخلْـق جـرّاها ويختصمُ

والناظـر إلـى شعره يجد أنّه لم يكن سبّاقاً في عصره فقط بل هو سبّاقٌ في عصرنا – على الرغم من كلّ أدوات الحضارة والتمدّن – وكأنـه استـشرف المـستقبل فانتقد واقعاً سياسـياً واجتماعياً ودينيا هو أشبه بما نعيشه اليوم، ولا نحيلُ ذلك لمعرفته بالغيْب ولكن على ما يبدو أنّ الأمّة عندما تنحدر وتتمزّق يتوقف لـديها الـزمن فتجتـرُّ قبائحها، فهل نستطيع الادعـاء أنّـنا قـادرون على تخليص أرواحنا وأنفـسنا من عبودية الخوف، الخوف من كل سـلطان بل حتّى من مجرّد السؤال عمّا يعتمل فـي دواخلـنا كمـا فعـل أبو العلاء، لقد كان المعـريّ حـرّاً في زمن أناسه سجناء خوفهم وتقالـيدهم، وبـصيرا في زمن بشره استقالت عيونهم من وظائفها.




الرياح في مرآتي..

شعر الدكتور عمر النص

كأنّي بها فوق الغمائم تعثُرُ
فسَلْها عن الإعصار هل عاد يجأرُ

ألمْ ترَها لم تنسَ في الليلِ دربها
فدَعْها ببابي تحتمي ثمّ تعبرُ

أهذي غيابات السماء أزيحُها
فأعلمُ منها أيّ عينينِ أبصر

كأنّ أساطيري تعانقُ ظلّها
فهل علمَت أنّ الأساطير تغفرُ

ترى أين مرآتي أهزّ مياهها
فألمحُ فيها صورتي تتكسرُ

ألمْ أترك الأيامَ تمسحُ وجهَها
فما بال وجهي خالها منه تثأرُ

أرى الريح تنأى بغتةً فأردُّها
وأصرخ خذها.. إنها تتذكرُ

ألمْ يحترقْ ليلي. ألمْ ينزف السنا
فلمْ أنسَ أنّ النجمَ قد يتأخرُ

ألمْ أرَ أنصابي تسافرُ في دمي
كأنّ الدنى لم يبق فيهنّ أبحرُ

ترى هل ألمّ الدرّ عن جمَراتها
وأحنو على نيرانها حين تفترُ







أأرجع منها بالكنوز أضمُّها
وهذي يدي فوق الحجارة تعثرُ

أأرقبُها والليل شبابٌ وراءها
وأنكرها والأفق عريانُ مقفرُ

فتصرخ بي أحداقها حين تغتلي
وتحدق بي أصواتها حين تزفرُ

لتأت أعاصيري.. لتأت سيولُها
فهذا غَدي مازال في الغيب يبحرُ

ألمْ تسأل الأوهامُ أين سريرها
فضاق بها صدرٌ وأوجس محجرُ

أأتبعها والليل يغتال دربَها
وأحبسها في ناظريّ فتكدرُ

وأخبئ في عينيّ كآبة عريِها
وأنزع عنها يأسها حين تكفرُ

وأسمع صوتي في الدروب يهزُّها
فأفتح صدري علّها تتفكرُ

وأترك ليلي يطمئنّ لليلها
فتنهضُ منه غابةٌ تتكبّرُ

ويطلع نجمٌ من مغائر نظرتي
تكاد الدجى تحنو عليه فيسفرُ

وينحتُ شوقي من رماديَ معبدا
تضجُّ شكوكي كلها حين يهجرُ

كأنّ عيون الليل تسكبُ ماءَها
فأسأل عن أحلامها أين تمطرُ







ألمْ أهدها عينَيْن تنتظِرانها
فما لروْاها لمْ تزل تتحيَّر

ألمْ أرَ ظلي يرتمي فوق ظِلِّها
فأين غيومٌ خالت الريح تقهَر

أهمُّ بها والليلُ ينشقُّ حولها
فأحسبها لم تنسَ ما كان يستر

فدعْ ناظري.. دعْهُ يراودُ قمة
تكاد رعودي فوقها تتعثّرُ

كأني أرى شمساً تغصُّ لهاتها
فأخبرها أيّ الغمائمِ تهمرُ

أهذي يدي تمتدُّ فوق صخورها
فيجري دمٌ فيها وتلهث أنهرُ

أأفتح صدري للرياح أجيرُها
فتلمح عشقي للجراح فتنفرُ

كأني بها تُغوي السرابَ بفيْئها
فتهوي عليه غيمة تتحدَّرُ

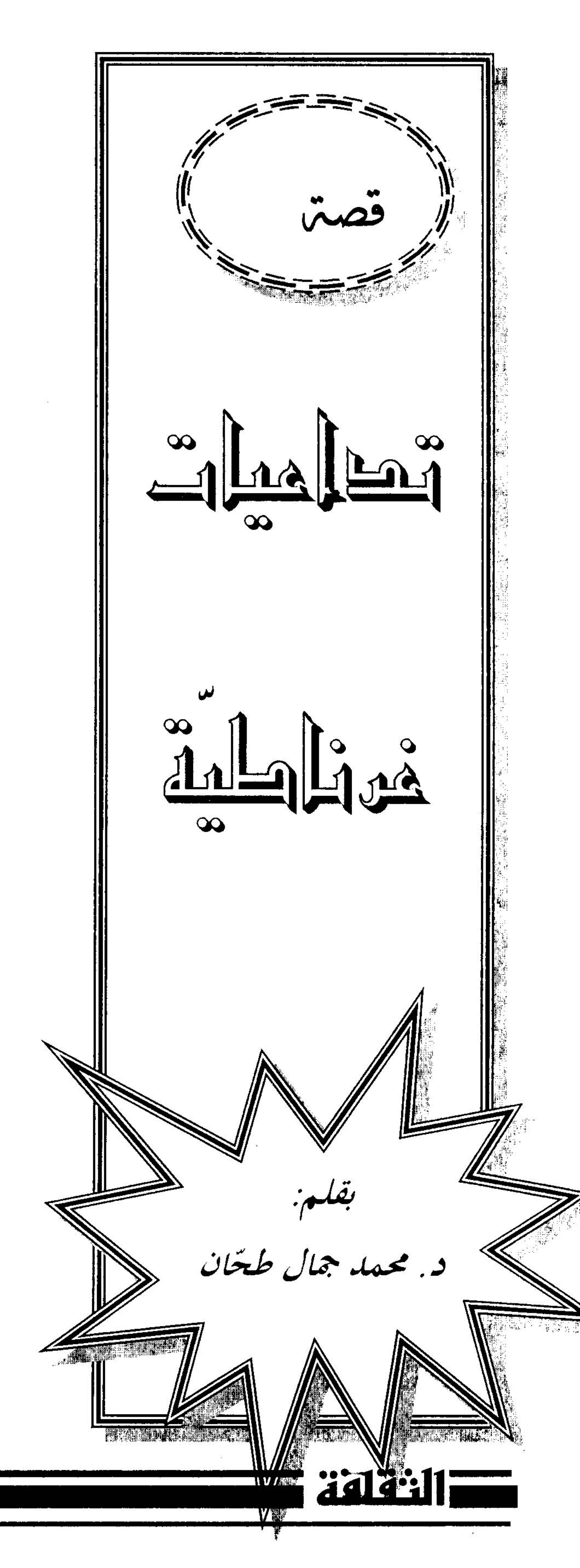
فماذا وراء الليل؟ هل ضاع زورقٌ
فلمْ يرَ فوق الموج أيّانَ يبحر

ألمْ يَنأْ ظلٌّ كان يغمرُ جبهتي
فلمْ يبق لي غير الزعازع تهدرُ

ألمْ أجعل الأصداءَ تهمد في دمي
فأيّ فمٍ في الليل مازال يجأرُ

لعلَ الرياح الهوجَ لم تنْسَ دربَها
فدعْها ببابي.. إنها تتحجرُ..



اكتظ الصالون الأدبي بالحاضرين، اتّخذ كل منهم مكانه المعتاد. المدخنون في آخر صف، قرب الباب. والذين يرغبون بالظهور أمام الكاميرا سارعوا لاحتلال الصفوف الأمامية مخلّفين بعض الأمكنة لصاحب الصالون وبعض الشخصيات الثقافية. أما أصحاب المناصب الرفيعة فقد اتخذوا مواقعهم في وسط الصف الأول الذي يبقى محجوزاً سواء حضروا أم لم يحضروا.

على غير العادة وربما بسبب امتلاء القاعة بدأت الأمسية في موعدها المحدد.

حين رحّب المحاضر بالحاضرين، انسحب اثنان منهم على الفور احتجاجاً على محاضرة مبتورة لم تبدأ بالبسملة. التفت صاحب الصالة وبدت على ملامحه نظرة احتجاج على قرقعة الكراسي في الصفوف الخلفية.

لم يكترث المحاضر بما حدث بل ازداد ثقة بنفسه وهو يرى هذا الجمهور الغفير الذي بدأت أساريره تنفرج حين بدأ أحمد بالكلام.

يتحسّس شعار النقابة المثبّت على ياقة معطفه وهو يلقي مقدمته المكتوبة.. لم ينتبه أحد إلى أيّ كلمة مما قال، غير أن القاعة استعادت عافيتها في إصغاء الحاضرين عندما صمت المحاضر برهة ثم تابع الحديث بقوله: "وكان آخر ملوك غرناطة، أبو عبد الله محمد، الملقب بالصغير. هو الذي سلّم مفاتيح غرناطة. الصغير هذا ثار على أبيه الحسن وقاتل عمّه الزّغل بعد أن اتّحد مع الملكين الإسبانيين لقاء وعد بأن يملّكانه غرناطة. وبعد أن انتصر على عمّه قلبا له ظهر المجنّ وأجبراه على تسليم المدينة.

صمت المحاضر برهةً ثم قال: الآن نعرض عليكم شريطاً مصوّراً يجسّد الواقعة،

يبدو أبو عبد الله الصغير وهو ينتحب على إضاعة مُلكه، تقترب منه أمّه مؤنّبة: ابكِ مثل النساء مُلكاً مضاعاً، لم تحافظ عليه مثل الرجال.

ثم يظهر الملكان فرديناند وإيزابيلا وقد أطلقا الجند لتمزيق أهل غرناطة.

يعرض الشريط محاكم التفتيش، وصوراً من ألوان التعذيب التي لحقت بأحفاد موسى بن نصير وصقر قريش.

الشريط يدون، والمحاضر يتفرّس في وجوه الحاضرين:

سراب بين الحاضرين..؟ غريب.. هل تخلّى عن اعتباري منافساً له، أم أنه جاء ليتصيّد العثرات ويحصد موضوعاً لشائعاته خلال الشهرين القادمين؟

سلمى؟ مسكينة، ماتزال تحضر الأمسيات بحثاً عن عريس.

آه.. هذا أيضاً بين الحضور.. سأقطع يدي من جذورها إذا كان يفهم شيئاً مما يقال.

ينقل المحاضر نظره بين الحاضرين.. أستاذي الجليل.. ها هو بين الحاضرين وتبدو على ملامحه علائم التأثّر على حضارة سلفت..

وتكاد الدمعة تطفر من عينيّ ماجدة..

سابح.. ها.. ا.. ا.. هذا الرجل الذي خلّف وراءه ثمانين عاماً من المناصب.. لو كان يشاهد الشريط الآن لكان بكى على أمجاده الغابرة حين كان، كما يقولون (على سروج خيله).. إنه جالس مع الحضور.. لكنّه كالعادة، يغط في نوم عميق.

ويبدو أن أجواء الأمسيات مكان مناسب لغفوته أوّل كل مساء.

فتاة ترتدي قميصاً فاقع اللون.. تتثاءب وتفكّر: لو يتأبّط محسن ذراعي لكنت ذهبت معه إلى آخر الدنيا.. المحاضر ينقّل نظره بين الحاضرين..

عفراء تحمل ستين عاماً خلفها وتنظر إليها نظرة استجداء: آه.. لو يتزوجني فوق امرأته.. سأشيله على الراحات وسيغدو كلُّ ما أملكه مباحاً له بغير حساب.

محمود ينقل نظره بين الشريط الذي يعرض والمحاضر: بوركت أبا سالم.. ما تفتأ تنتقل من نجاح إلى آخر من خلال اجتهاد متواصل يثبط عزائم الأشرار ويغيظ الحاسدين.

أحمد يتأمّل شريط الأندلس.. يلمح عائشة الحرّة الأندلسيّة بقوامها الرشيق.. آه يا أم الصغير.. لو كانت زوجتي تملك جمالك ورشاقتك.. كنت ملكت القلعة..

هي لا تملّ من (النقّ) ولا تتوانى في كل مرّة عن مقارنتي بأبي سالم.. شوف أبا سالم.. شوف أين وصل، وكيف يحترمه الآخرون؟ آه.. إنها لا تكفّ عن الحسد.. ما لنا والرجل.. لماذا لا نرضى بما نحن عليه؟!

يدور نظره في فضاء الصالة.. تقع عيناه على عاليه.. لو كانت زوجتي.. كنّا شكلنا فريقاً أدبياً معتبراً.

أبو سالم يلقي نظرة على شريطه: الملك يخرج من غرناطة مع أسرته وحاشيته وأمه عائشة الحرّة وهو على فرسه فوق تل البذول ينظر إلى غرناطة الدرّة الفريدة المضيئة التي سلّمها إلى العدو الصليبي..

أبو سالم يتذكّر قول محمود درويش:

كنّا هناك ومن هنا ستهاجر العربُ
لقصيدة أخرى، وتغتربُ
قصبٌ هياكلنا
وعروشنا قصبُ
في كل مئذنة حاوٍ، ومغتصبُ
يدعو لأندلسٍ
إن حوصرت حلبُ

ينتهي الشريط.. يختتم أبو سالم محاضرته بالقول: الآن نتساءل: هل يعيد التاريخ نفسه؟ ومن الذي يسلم مفاتيح غرناطة الجديدة؟

لقد خرج أجدادنا من الأندلس.. والخوف الذي يعتريني الآن نابع من مؤشرات ما نسعى إليه، ما نخافه الآن أننا مقدمون على مرحلة قد نخرج معها من التاريخ إن لم نبادر إلى حلول جذرية تغيّر ما نحن فيه.

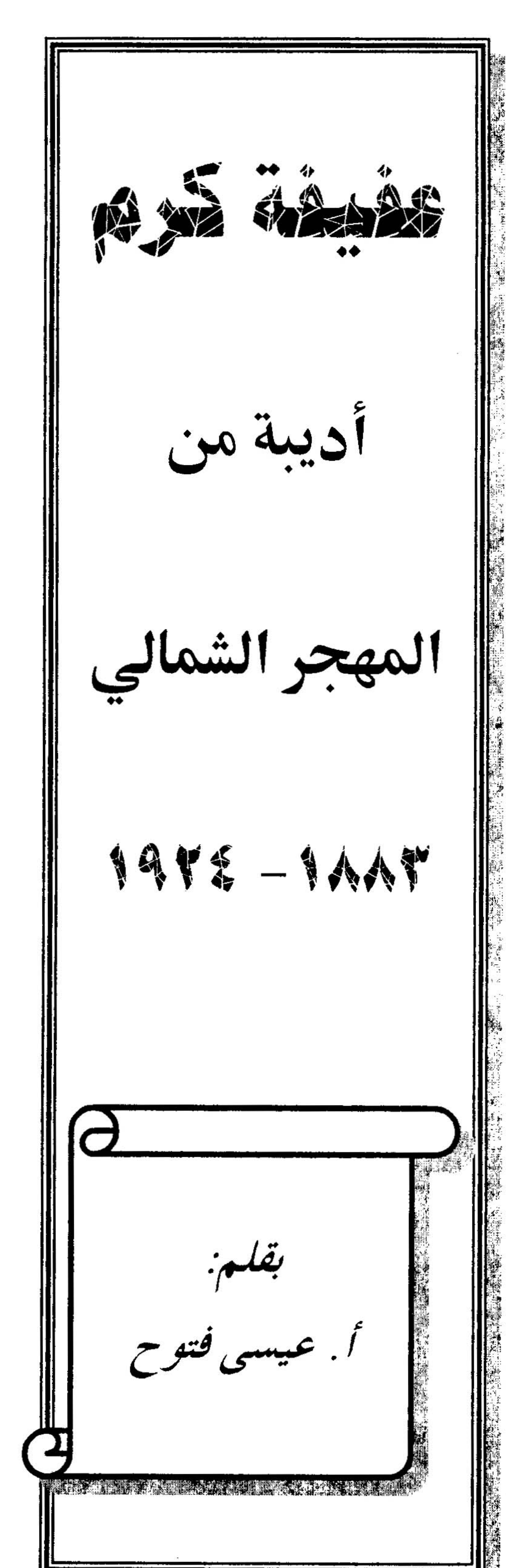
جثت خجلاً من المحاضر الذي اتصل بنا قبل أن تنتهي الأمسية تحسّر فريد: شغلة فاضية.. لو أننا حضرنا حفلة نانسي عجرم بالتلفزيون كان أفضل.. بس تورّطنا..

صفق الحاضرون بحرارة، وهمّوا بمغادرة القاعة، لكن سابح استيقظ على صوت التصفيق.. فرك عينيه واستوقف مدير الصالة ليلقي كلمة..

وقف بتثاقل سنيه التي تمتد منذ /١٩٢٥/ وقال: استقلّت الأندلس عن العباسيين وكوّنت إمارة قرطبة.. ثم تلاشت الإمارة وتوزّعت في دويلات حكمها ملوك الطوائف، ثم المرابطون فالموحدون. هُزموا أمام الإسبان ثم انحصر سلطان العرب في مملكة غرناطة. ونحن الآن نعمل على استعادة غرناطة.. إننا أمّةٌ عربيةٌ واحدة ننتقل من نصرٍ إلى نصر.. سندحر الغاصبين ونحرر الأراضي المحتلة ونستعيد غرناطة وانطاكية.. سنمتدُّ من المحيط إلى الخليج، بلا حواجز.. تكلّم سابح وتكلّم إلى أن قاطعه أحد الشباب قائلاً: أبوس أيديكن سكّتوه.. سابح بيك.. هو أحد أسباب هزائمنا المتوالية.. أمثاله هم الذين صنعوا وليد.. بربّكم ألا ترون نموذج الصغير يتكرر بشخصية وليد الذي جهّز مفاتيح كثيرة للمدينة كي يسلّم من يشاء نسخة منها.. أين نحن اليوم من عبد الرحمن الداخل.. نحن نحرق السفن كي لا نقوى على مقارعة أحد.. كفّوا عن التشدّق بالشعارات.. يرحمكم الله..

أنت يا سابح بيك.. تحمل - بالكاد - بكالوريا صناعية، ومع ذلك تقلّدت أرفع المناصب لأسباب غامضة.. أنت من حوّلت محسن إلى قسم الجمع.. محسن الذي يحمل إجازة محاسبة ولديه شهادة خبرة أكثر من عشر سنوات في لبنان جعلته يدقق الجمع خلف محاسب معه شهادة تاسع.. كاملة. كنت تتعمد تحقير موظفيك أصحاب الشهادات.. كنت تسقط شكالة الورق متعمّداً وتأمرهم بالتقاطها لك.. أنت واحد من كثيرين زرعتم في نفوسنا الذل متعمّدين.. أنتم صنعتم منّا نماذج دونكيشوت..

ألم تعلّمونا أنتم أنه لا خوف من الصهاينة وأن بصاق العرب يغرق دولة إسرائيل خلال ساعات.. نشف ريقنا وأغرق البصاق لحانا.. وما نزال نظن أننا ورثة خير أمة أخرجت للناس. فكروا معي بهذه التواريخ: لقد كانت مفاوضات استسلام غرناطة، ثم التخلّي عنها في تشرين عام ١٤٩١ وبعد خمسمئة عام كان مؤتمر السلام لفلسطين بمدريد في تشرين عام ١٩٩١. فهل كان هذا مجرّد صدفة أم أنّه يحمل الكثير من الدلالات؟ لم ينه الشاب كلامه غير أن صوته اختفى عن مكبّر الصوت.. خيّم الظلام على الصالة.. ارتفعت حرارة المكان.. تفرّق المجتمعون على غير هدى.. رحت أجوب الشوارع.. أهرب من صدى يلاحقني: أمسينا نأمر بالمنكر وننهى عن المعروف ولكننا، أبداً، لا نقنط من رحمة الله....



أديبة وكاتبة وروائية وصحفية لبنانية، عملت جاهدة للنهوض بالمرأة العربية في الوطن والمهجر.

ولدت في ٢٦ تموز عام ١٨٨٣ في (عمشيت) من بلاد جبيل التي استهوت موريس باريس وتشرشل وهنري بوردو، وشبهها أمين الريحاني (١٨٧٦- ١٩٤٠) ببريتانيا الفرنسية، وقال عنها الرحالة الفرنسي إرنست رينان إنها الفردوس الأرضي.

تلقت دراستها الابتدائية في مسقط رأسها، ثم انتقلت عام ١٨٩٦ إلى مدرسة راهبات العائلة المقدسة في جبيل حيث قضت سنة واحدة، تزوجت في نهايتها من نسيبها حنا صالح كرم الذي كان مولعاً بارتياد المجهول، والأسفار البعيدة. فهاجرت معه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، واستقرت في ولاية لويزيانا على خليج المكسيك، وهناك انصرفت كلياً إلى الدرس والمطالعة، فكانت تقرأ بنهم كل ما يصلها من كتب وصحف ومجلات أدبية وثقافية من المهجر أو الوطن الأم، حتى أغنت ثقافتها وتمكنت من اللغة العربية، فراحت تكتب المقالات في الصحف والمجلات، وبذلك ذاع صيتها وأصبحت من أشهر الكاتبات في الوطن والمهجر، وقد ساعدها عدم إنجاب الأولاد على التفرغ والانصراف إلى الكتابة والترجمة والتأليف.

كلفها الصحفي نعوم مكرزل (١٨٦٣- ١٩٣٢) الإشراف على جريدة (الهدى) في

نـيويورك مـدة سـتة أشهر، حين سافر إلى بـاريس، فقامـت بهـذه المهمة خير قيام، ثم أصـدرت عام ١٩١١ مجلة (المرأة السورية) التـي اسـتمرت عامـين، وكانت منبراً لكتّاب وكاتبات الوطن والمهجر، وعام ١٩١٢ مجلة (العـالم الجديد النسائي)، وتعد هاتان المجلتان أول مجلتـين عـربيتين نـسائيتين ظهرتا في الأقطـار الأميـركية، وبعـد توقـف مجلتيها المذكورتـين أخـذت تراسـل مجلـة (المرأة الجديـدة) فـي بيروت لصاحبتها جوليا طعمة دمشقية (١٨٨٠- ١٩٥٤).

ألفت الأديبة عفيفة كرم عدة روايات، مـنها (بديعـة وفؤاد) التي طُبعت في مطبعة جريدة الهدى عام ١٩٠٦، و (فاطمة البدوية) ١٩٠٦، و (غـادة عمـشيت) التي طبعت في مطـبعة جـريدة الهدى أيضاً عام ١٩١٤، و (محمـد علي الكبير) و (كليوباترا). وترجمت روايـة (ملكـة لـيوم) التـي تمثل الوفاء في الـزوجة، والحـب الـشريف وإنكار الذات، و (نانـسي تساير) و (ابنة نائب الملك) ١٩١٨.. وكان الإقبال على قراءة هذه الروايات جميعها شديداً.

اشـتهرت عفـيفة كرم بحبها لبلدتها عمـشيت التـي خلـدتها فـي روايتها (غادة عمشيت) ولوطنها لبنان، الذي ظلت حتى آخر يـوم مـن حياتها تتحدث عنه بحسرة وشوق، وتذكره في مقالاتها، وكانت تقول:

"عمـشيت بلدتي الغالية المحبوبة مني حتى العبادة".

وتأمل أن تعود إليها يوماً، لكن الموت عاجلهـا إثـر إصابتها بانفجار في الدماغ أدى إلـى وفاتهـا فـي مديـنة (شرينبوت) بولاية لويـزيانا عـام ١٩٢٤ وهـي فـي الحاديـة والأربعين من عمرها.

نـشرت بعـض مقالاتهـا فـي مجلة (المـرأة الجديـدة) وهذا مقطع من إحدى تلك المقالات تقول فيه:

"إنـنا فـي المهاجـر نواجه مدنيتين متناقـضتين، إحداهما شرقية بحتة، والأخرى أميـركية محضة. ونحن في الاثنتين مقصرات عـن بلوغ الدرجة التي نريدها لأسباب عديدة مـن اختيارية واضطرارية من أهمها ما يلي: أولاً إننا في البلاد الأميركية بعيدات عن الوسط اللبنانـي، ولولا محبة كامنة في الصدور لذلك الـوطن المفدى، وغيرة من أبناء شعبنا الذين سـعوا ولا زالوا يسعون لإحياء اللغة العربية الـرابطة الوطنـية المتينة، لما كان الآن على هـذه العلاقـة بكم، وثانياً لأن مصالحنا، وهي الرابط الثاني الأهم لقلوب الأمة تضطرنا للسير بمـوجب قوانـين واصطلاحات وعادات القوم الذين نحن بينهم، وقد سرنا عليها هذه السنين الطـوال، فكـادت تكـون لنا عادات بل طبيعة ثانية.."

"وثالـثاً لأنـنا ندافع بكل قوانا لحفظ تقاليدنا وعاداتنا، وشتان بين من يكون يجرب السباحة مقاوماً التيار الذي يجرفه، ومن يسير معه، تاركاً له السير به للجهة التي يسير بها".




إلى رَجُلٍ يخَافُ البَحر..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

ألغيتُ موعدَ السفر مَعَكْ
لأنَّ دُوارَ البحر يُتْعِبُكْ
ولأنَّ صُداع الحُبّ يُتْعِبُكْ
ولأنَّ جلدكَ الطريَّ كالقطيفَهْ
لا يتحمَّلُ ملوحةَ البحرْ
وعضّات أسماك القرشْ..
مزّقتُ تذكرةَ السفرْ
وقررّتُ أن أُعْفِيَكَ
من تقلبّاتِ الطقسْ..
ورائحة السُفُنْ..
وجُنُونِ المسافَهْ..
لأن قُبُلاتي تسبّب لكَ الحساسيّهْ
والنومَ على سطح المراكبْ
يوسّخُ قميصكَ المُنَشّى
وشَعْرَكَ المُصفّفَ
لدى أمهر حلاّقي المدينَهْ..
إبْقَ، يا صغيري، على اليابسَهْ
فذاكرتُكَ كذاكرة الحَجَرْ..

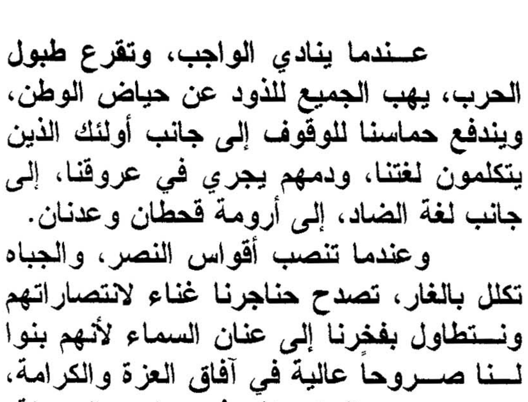
لا تحتملُ الهُجْرات الكبرى
إبْقَ مواطناً في مملكة الشجَرْ
حيثُ التجوُّلُ ممنوعْ
وتغييرُ العناوين ممنوعْ
والانقلابُ على التاريخِ ممنوعْ
إبقَ ثابتا في مكانكَ.. كساعة
المحطَّهْ
أو كمُلْصقٍ سياسي سخيفْ
و كموقفٍ إجباري لأوتوبيس
الدولَهْ..
أيُّها السيّدْ
الذي يضعُ ساقاً فوقَ ساقْ
ويَتَغَرْغَرُ بفتوحاته النسائية القديمَهْ
إنني أُعْفيكَ من مجاملتي
ومن مراسلتي..
ومن الظهور معي في شوارع
المدينهْ
فأنا لا أريدُ أن أورّطَكَ في اللعبَهْ







لا أريد أن أجعلكَ عاشقاً
رغْمَ أنفكْ
وشهيداً للحُبّ..
رَغْمَ أنفكْ..
لا أريدُكَ أن تفقدَ إصبعاً واحداً..
أو شَعْرةً واحدَهْ
أو جوهرةً واحدَهْ
من جواهر عرشكْ
أنتَ رجلٌ متّزنٌ، ورصينٌ،
وأنا امرأةٌ فوضويّهْ
أنتَ نجمٌ في علاقاتك العامَهْ
وأنا غَجَريةٌ..
لا تعرفُ أقنعةَ المُدُنْ
وفنَّ العلاقات العامَهْ..
أيُّها السيِّدُ الذي أغمدَ سيفَهْ
ونسيَ غريزَةَ القتالْ..
إنني أُعفيكَ من التزامكَ العاطفيّ
نحوي..
أُعفيكَ من الخروج في الليل وحدَكْ
لأن البَرْدَ يؤذيكْ
والسَيْرَ معي في الحدائق العامة
يُؤذيكْ..
والدخول معي إلى المقاهي المغلقة
يُؤذيكْ..
إنني أُعفيكَ، أيُّها السيّد، من كلّ
شيءْ..
فأنتَ رجلٌ لا يتقنُ الألَمْ.
إبْقَ، أيُّها الرجلْ، حيثُ أنتْ..
إبْقَ عبداً لعاداتكَ اليوميّةِ البليدَهْ
انتظرْ قهوتَكَ في الثامنهْ..
وجريدتَكَ اليوميَّهْ،
في الثامنةِ والدقيقة العشرينْ..
وإفطارَ الصباحِ في التاسعَهْ..
ابْقَ بين ملفَّاتكْ..
وبريدكَ.. وسيجاركَ الكُوبيّ
مَزْرُوعاً كمسلّةٍ مصريّهْ.
أيّها الرجلُ المشنوقُ على حبال
الوقتْ
إبْقَ مطموراً تحت أرقامكَ وأوراقكْ..
إبْقَ واقفاً على مرفأ الطمأنينهْ،
أما أنا..
فمسافرةٌ مع البحرْ..
ومسافرةٌ مع الشعرْ..
ومسافرةٌ مع البرْقْ
مسافرةٌ في كلِّ الأشياء
التي لا تعرفُ التوقيتْ..



الحماسة بين شاعرين أبو تمام و فرحان الخطيب و عبق الانتماء

بقلم:
سعاد مكارم

عـندما ينادي الواجب، وتقرع طبول الحرب، يهب الجميع للذود عن حياض الوطن، ويندفع حماسنا للوقوف إلى جانب أولئك الذين يتكلمون لغتنا، ودمهم يجري في عروقنا، إلى جانب لغة الضاد، إلى أرومة قحطان وعدنان.

وعندما تنصب أقواس النصر، والجباه تكلل بالغار، تصدح حناجرنا غناء لانتصاراتهم ونـتطاول بفخرنا إلى عنان السماء لأنهم بنوا لـنا صـروحاً عالية في آفاق العزة والكرامة، وبـصوت عـالٍ نهـتف في ميادين الرجولة: (عاشـت أمـة العرب) إنه الحماس لقوميتنا، وللمتفرد المتميز من أبنائها. إنه الحماس لكل مـن انـسابت لغتنا على شفتيه عذبة رقراقة شفافة، فتعقد حلقات الدبكة، ويشعر الفرد بأن أقدامـه تنـتقل بحركة ثابتة على وقع صوت المنجنـيق، وعلـى صـوت انـصلات السيف واهتـزاز الـرمح وهديـر الدبابـة والطيارة. والحمـاس ظاهـرة عـروبية عـودنا عليها الـشعراء لما لهذه الأمة من وقائع في معترك البقاء.

فعـندما تقطـر السيوف دماء، يندفع مقاتلـنا نـاراً محرقة على أعداء الأمة، لتبقى حـضارتنا وثقافتـنا تحت جناح الشمس تتربع علـى العالي من المكانة والسمو من الأخلاق والقيم.

والحمـاس لا يأتي من فراغ، بل هو إحدى الصور الوجدانية الزاهية والمشرقة، بل مـرآة حقيقـية وناصعة لما يسجل في تاريخ الأمـة مـن ارتحـال إلـى القمم، وسباق إلى مـيادين العـزة والبطولة فيكتب الشعر، وتعقد الدبكات، وتحلق الزغاريد، ويبقى الشعر سجلاً حياً وفياً لأنه يحمل إيقاع طبول الحرب، ويعبّر عما يجيش في النفس فيأتلف الاثنان في بيان شامخ شفيف تتناقله الأجيال من جيل إلى آخر شـعراً حماسـياً حـيث نجـد الشعراء الذين يـسرحون بخـيالهم إلـى ما بعد حدود العقل تلهمهـم الحماسة وتسربلهم العاطفة فيقدموا عصارة ما أنتجوه شعراً كرمى لعيني الأمة.

مـن هـؤلاء الـشعراء (أبو تمام في العـصر العباسي وفرحان الخطيب في عصرنا الـراهن) فالملحمة إحدى حالات الانفعال التي

تجتاح مشاعرنا كما أنها تعبّر عن اختلاجات العزة والفخار، ففي قصيدة (فتح عمورية) نسمع نبضات الحماس التي تنتاب أبا تمام، إذ يظهر سمو الفكرة لديه:

السيف أصدق إنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في
متونهنّ جلاء الشك والريب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت
عنك المنى حفلاً معسولة الحلب

فالسيف يتجاوز الحرف، ويصبح أقدر على التعبير وأسرع في اختراق الضمير، فالحرب لا تحتاج إلى الحرف بقدر حاجتها إلى القوة، ومن يقرأ فرحان الخطيب سيجده متناولا هذا الجانب في قصيدته.. (أخت العلا):

أخت العلا تشرين أقبل مرحبا
هيا اسرجي الخيل العتيقة مركبا
وترنمي هذا صليل سيوفنا
وتبختري فالمجد لا لن يحجبنا
فرهيف سيف ابن الوليد معمداً
بالدم عاد ولن يغادر مشربا

ويأتي صوت أبي تمام مادحاً أمير المؤمنين المعتصم بالله، معبّراً بفخر وكبرياء لا تشوبه شائبة:

لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى
يقله وسطها صبح من اللهب
تدبير معتصم بالله منتقم
لله مرتقب في الله مرتقب
لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلد
إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا
من نفسه وحدها في جحفل لجب

ويدق الحماس الشاعر فرحان الخطيب فنسمعه يقول مخاطبا القائد الأسد عندما وقف صامداً في غيلة الشام يصد عن أمة العرب في تشرين النصر:

يصد عنها إذا هزتها غائلة
وقاسيون بهدب العين إن نكبا
يسير الفلك لا تدري أعنتها
أين المراسي إذا ما غامرت لجبا
بحنكة قد حباه الله يدفعها
والبر يدنو.. وكان البر مرتقبا
ويورق الخير في عينيه إن بسمت
وترجف الأكم في كفيه إن غضبا

وعندما عسكر المأمون في ثغر (أذنة) وتغلغلت جيوشه بين البيزنطيين وأخذت تبدد جموعهم. وكذلك عندما تقدم المأمون بنفسه إلى حضن لؤلؤة حيث أخذت جيوشه تنزل بالروم هزائم ساحقة، عندها تغنى أبو تمام بتلك الانتصارات فكانت كلماته ترقص في سطورها عندما يقول:

مسترسلين إلى الحتوف كأنما
بين الحتوف وبينهم أرحام

آساد موت محذرات مالها

إلا الصوارم والقنا أجسام

ويتغنى فرحان الخطيب بتشرين الأسطورة التي حطمت غرور العدو الذي اعتبر نفسه بأنه لا يقهر، حيث يظهر الشاعر كلماته بحماس منقطع النظير فينشد لتشرين:

الشعر مالي آراه العاشق الطربا

لعين تشرين تلقاه الغصون صبا

لأن تشرين أحيا الغار في وطني

فعاش تشرين بالقاني الذي سكبا

لأن تشرين كاد اليأس يقتلنا

يؤخر الشمس لولا نورها غربا

لأن تشرين مثل الشيخ منتصباً

ويأسف الشيخ لو تشرين ما انتصبا

ويجول أبو تمام التاريخ شعراً في قصيدته التي يمدح فيها خالد بن يزيد الشيباني ويشيد في انتصار قومه على الفرس في موقعة ذي قار:

لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد

وحيد من الأشياء ليس له صحب

به علمت صهب الأعاجم أنه

به أعربت عن ذات أنفسها العرب

هو المشهد الفصل الذي ما نجابه

لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب

وليس يوم حطين اقل شأناً من ذي قار، ففيه انتصر صلاح الدين على همجية الصليبيين وجبروتهم ولهذا يتحمس فرحان الخطيب لهذا اليوم الأغر في تاريخنا فيقول:

يا يوم حطين انتفض حمّ الوغى

طال الرقاد وقد رأيتك متعباً

عرج على اليرموك تلق عرمرماً

متيقظاً قد مل قفراً مجدباً

يا يوم حطين انتفض تشريننا

أحيا لكم ذكراً جميلاً طيبا

فمن ذي قار إلى حطين إلى تشرين بين شاعري الحماسة أبي تمام وفرحان الخطيب، ويستمر أبو تمام في حماسه واصفاً بسالة الأبطال الذين يتغنى بمدحهم وانتصاراتهم في ملحمة كبرى يجسد فيها بطولاتهم تجسيداً يدفع الحماسة في قلب كل عربي، وتضطرم نار النخوة وتأج أجيجاً في قلوب الأعداء:

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت

عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت

والشمس واجبة في ذا ولم تجب

أجبته معلناً بالسيف منصلتاً

ولو أجبت بغير السيف لم تجب

ويعلق فرحان الخطيب زهوه وفخره بحماة الوطن الأبطال الصناديد الذين سوروا تراب الوطن بأرواحهم وسقوا ثراه من دمائهم، وهاهم ينطلقون إلى ساح الوغى أسوداً أباة:

فيه الضياغم.. إن ناداهم الوطن

بالقلب موطنهم من حوله احتشدوا

والغار جمّل هامات ترف لها

أرض كأم إذا ما جاءها ولد

إن هـاج ساح الوغى لاقت عوارضه

أسـد، ومـاهم عـنف ولا عـدد

وتظهـر الحماسـة عند أبي تمام في مواقـف يفاخـر فيها بالنسب، فحماسة لنسبه يعطـي صورة متألقة لذلك النبع الأصيل الذي انبثق منه:

وهـل خاب من جذماه في أصل طيء

عـدي العديـين القلمـس أو عمـرو

لـنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت

وبطـنانها مـنه وظهـرانها تبـر

مقاماتـنا وقـف علـى العلم والحجا

وأمـردنا كهـل وأشـيبنا حبـر

ويندفع الشاعر فرحان الخطيب معبّراً بحماسـة قل مثيلها عن قريته (شعف) الحالمة القابعة على سطح أحد تلال محافظة السويداء إذ يقول:

يا تلة خضراء يعبق بالأريج سماؤها
يا روضة تاه الزمان بزهوها وبهائها
ملئت بيادرك نعم.. ويموج من قسماتها
وشم الضيافة والكرم
أهواك يا شعف التي
علمتني معنى القيم

ويتابع أبو تمام فخره بهذا النسب:

لـنا غـرر زيديـة أدديـة

إذا نجمـت ذلـت الأنجـم الزهـر

كمـاة إذا ظـل الكمـاة بمعـرك

وأرمـاحهم حمـر وألـوانهم صـفر

مـساع يـضل الشعر في كنه وصفها

فمـا يهـتدي إلا لأصـغرها الـشعر

أمـا فـرحان الخطيب فيتوسع بدائرة النـسب إلـى بلـده الأشمل السويداء التي نما وترعـرع وتعلـم ودرس فيها ليقدم لنا لوحة عـنها مـتكاملة عـن طبيعـتها، وعاداتهـا، ونسوتها:

ونـروح شـدتنا الكـروم لتيـنها

للـوز.. يخـشى راجفـاً حطابهـا

نهـب الـصبا من شمسها أضمومة

ونـصوغ مـن فـرح الـصبا أثوابها

الفجـر يـصحو من صدى مهباجها

ويهـب يـوقظ سـهلها ويـبابها

تغلـي (دلال الغانمـين) كأنهـا

دنـيا تهيـئ للـشتاء سـحابها

هـذي مـضافات الأولـى ماهادنـوا

مـذ وتـدوا بـدمائهم أطـنابها

ثم ينتقل لوصف النساء أخوات الرجال في المعارك:

كـم بيـرق طـرزن حـول حماتـه

ومـلأن مـن أفكـارهن رحابهـا

وخبـزن للـثوار فـي غسق الدجى

وشـفين لـو سـالت دمـا أوصابها

يـصقلن حـين يزغـردن مهـنداً

ويخـضن لمـا يهـزجن عـبابها

وعلـون ظهـر الخـيل يخفق متنها

مـن تحـتهن إذا لـوين رقابهـا

وعشق الأرض لا يضاهيه عشق، هي التـي تحمـل تراثنا، وهي التي تحمل ثقافاتنا وحضارتنا، هي التي تحتضننا وترضعنا حبها، وهـي التي تزهو بوجودنا على ثراها، ونعتز بانتمائـنا لـها، إنها الأرض الوطن، التي تعطينا

قيمتها، وتمنحنا المهابة والوقار، ونهب للدفاع عنها ونقف أسوداً في وجه أعدائها الطامعين بخيراتها، فأبو تمام يقول متحمساً:

إن الأسود أسود الغاب همتها

يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

كم بين حياطها من فارس بطل

قاني الذوائب من آني دم سرب

والحرب قائمة في مأزق لجب

تجثو الرجال به صغيراً على الركب

وتتآلف الحروف عند فرحان الخطيب تشكل كلمات تقرع الطبول حال سماعها فيشعر المرء أنه على استعداد لكي يرقص على إيقاعها:

لا تسل يا صاحبي كيف امتشقنا
السيف فخراً
ومشينا
لا تسل كيف عزمنا
أن شموخ الأرض فينا
لا تسل كيف ارتوت أرض بقان
فازدهينا

(تربة وطننا مانبيعا بالذهب

دم الأعادي نجبلوا بترابها)

أما الوحدة العربية التي تغنينا بها منذ مئات السنين، تلك التي تجمع العرب في دم عربي واحد وعلى قلب واحد، الوحدة التي يقف العدو خائفاً منها لأنها تشكل خطراً عليه، وتفتت حلمه، وتلوي ذراعه، أما الوحدة لأبناء العروبة، فهي الطود الراسخ والشامخ، وهي الانتقال بقوة إلى مدارج الأمم الصاعدة، وهي التي سكب الشعراء من قرائحهم حروفاً ملونة، وتعابيراً رقراقة، ليروا الوحدة خيمة من أمل تظلهم وفرساً جموحاً يعبرون على صهوتها إلى حيث العزة والمنعة والكبرياء ولا ينقذ الأمة العربية إلا وحدة متينة تجعل أبناءها في سبحة واحدة، يقول أبو تمام:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت

أعمارهم قبل نضج التين والعنب

وفي قصيدة أخرى يقول:

ووسيلتي فيها إليك طريفة

شام يدين بدين آل محمد

نيطت قلائد ظرفه بمحير

متدمشق متكوف متبغدد

حتى لقد ظن الغواة وباطل

أني تجسد فيّ روح السيد

وتظهر الوحدة العربية جلية وواضحة عند أبي تمام في يوم ذي قار:

لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد

وحيد من الأشياء ليس له صحب

به علمت صهب الأعاجم أنه

به أعربت عن ذات أنفسها العرب

ويقف فرحان الخطيب قبالته عندما رأى ملمحاً من ملامح الوحدة العربية في حرب تشرين وهو يرنو فرحاً لهذا المشهد الرائع:

والزحف في تشرين إنا أخوة

من مصر من بغدان أو من يثربا

هذي بلاد العرب عانق شرقها

والشرق يحلو في النضال المغربا

لكن الخطيب يبدو ملتاعاً ومتألماً لحالنا الراهنة، ولعدم قدرة العرب على رص

الصفوف وتوحيدها فيستعيد الماضي ليجسده أملاً في حاضرنا للمستقبل فيقول:

سيّرت ركبي صوب قومي ربما
ألقى تميمة مجدنا أو مغنما
ولويت عنق مطيتي أرتادها
أرضاً أضاء سماؤها أم أقتما
وزجرت طير البؤس طال تشاؤمي
والنفس تأبى خانعاً متشائماً

ثم يستذكر الخطيب الحصان الرامح إلى جدائل الشمس والجامع إلى أغصان الكبرياء ويسأله عن أيام زمان:

يا حصاني.. كان يا ما كان يروي
رجلك اليسرى على وهران ترسو
وترى اليمنى على تلات جدّة
والخليج العربي صفق مجده
والمحيط الأطلسي يعطيه وجده
فأجبني.. ردّ ملتاعاً وقال:
كان يا ما كان وحده.

والإنسان عند أبي تمام لا يبقى في موطنه بل عليه بالسفر والانتقال من مكان إلى آخر للاطلاع والسياحة والعمل فيقول:

وطول مقام المرء في الحي مخلق
لديباجيته فاغترب تتجدد
وأني رأيت الشمس زيدت محبة
على الناس إذ ليست عليهم بسرمد

ويتحمس فرحان الخطيب للاغتراب من خلال صديق له سافر ووعده بأن يعمل ويدرس في آن، فالفائدة فائدتان والمتعة متعتان، وبهما تتحقق متعة الاغتراب والسعي، يقول في قصيدته (صديقي):

ألم ندرج معاً في الحقل
والحارات والبيدر
ألم نرسم أمانينا
على الحيطان والدفتر
وخلنا أنها تدنو
وشبنا وهي لم تظهر
صديقي روعة الدنيا
إذا مرت بنا تسخر
ولكن بهجة الإنسان
في إيجاده المعبر

ومن الأشخاص الذين تحمس لهم أبو تمام اسحق بن إبراهيم المصعبي فيخاطبه قائلاً:

قل للأمير الذي قد نال ما طلبا
وردّ في سالف المعروف ما ذهبا
ترضى السيوف به في الروع منتصراً
ويغضب الدين والدنيا إذا غضبا
في مصعبين ما لاقوا مريد ردى
للملك إلاّ عادوا خدّه تربا

ويواكبه فرحان الخطيب في قصيدته (وبك استجار المنصب) حين يخاطب قائد الثورة السورية الكبرى سلطان باشا الأطرش فيقول له:

سلطان إني بالمعالي معجب
وإلى صليل البيض شوقاً أطرب
وسألت آيات البطولة والفدا
عن أي فخر أو عظيم أكتب

حيـيت يــا بطــلا توسـد تــربة

وغــدوت يــا سـيفاً بجفــن تحجــب

فـسقى ثـراك الغيث ما همت السما

وســخا علــى الجـدث المعطر صيّبُ

والحماس عند أبي تمام أو عند فرحان الخطـيب يبدو ملحمياً فنسمع وقع الحداء عند كلـيهما سواء في قصيدة (فتح عمورية) لأبي تمـام أو في قصيدة (أميمة) لفرحان الخطيب، فأبو تمام يخبرنا في قصيدته عن فتح عمورية بأسـلوب ملحمــي، يبتدؤها بقعقعة السيوف والإنــباء عن طعناتها ثم يصور لنا جيشا لجبا يخوض غمار المعركة بإيمان وتصميم شديدين ويــتابع وصــفه لقـدرة المعتصم على اجتياح أسـوار عمـورية وكـيف أضاء ساح الوغى عندما أجاب بالسيف ولم يجب بغيره:

الـسيف أصـدق إنـباء مــن الكتب

فــي حــده الحـد بـين الجد واللعب

فـتح الفـتوح تعالــى أن يحـيط به

نظــم مــن الشعر أو نثر من الخطب

وتــبدو الملحمية واضحة عند فرحان الخطيب في أميمة حيث يشعر الفرد أنه يصور الأمــة بكبريائها وشموخها وعزتها، ولا ينسى أن يــضع إصــبعه علــى جرحها فيهتف قهرا لآلامها، وتشتتها، فيبتدأ قصيدته بلحظة الولادة الجديدة دون أن ينسحب من تاريخنا المجيد بل يبعثه فينا حيًا نابضا يسري في عروقنا:

هاتي لرعشتنا أنوثتك النقية للبقاء
هاتي ضفيرتك انشريها فوق هامتنا
بقايا من غطاء
جسدي تشظى فابعثي
خصب الحياة لهمتي
ولرونقي بعض الدماء

وينتقل بنا الشاعر فرحان الخطيب إلى حـيث الملامــح الواقعية والوقائع التي تعتبر نقاطاً مضيئة في تاريخنا يصيغها بفن شعري واضح:

هل تذكرين لقاءنا
حين ابتدأت أجول في تغريبتي
والشرق من عينيه طرزّنا خيوط الكبرياء
وإذا تهب الريح.. تنتعش الربا
كي يستريح كميّها
وتدق حافرها الخيول هدى
ويشتعل الصهيل.. يرجّ أروقة الفضاء

ويــتابع الخطـيب تصوير واقع الحال مازجاً إياه بالماضي الغابر ويستشرق المستقبل بــولادة عــربية جديدة تهب الكون فرح الحياة في انتماء مزهر ومتجذر بآن فيقول:

وإذا ولدت الرامح المجنون خلّي
مقلتيه تهيم في وجع السنين
دليه لو ودّ البقاء
لي وردتان على تخوم تصحري
لي قطرتان من الندى.. تحيي نسيج تجذري
هيا أميمة كي نجنّ
لكي يكون لنا بقاء

ويبقــى الشهيد هو ذلك الشجاع الذي مــات بين ضرب السيوف وطعن الرماح، هو الــذي يهب روحه رخيصة فداء للوطن، يقدم روحــه علــى مذبح الكرامة، يقتحم الأهوال، يواجه الأعداء لا يتخاذل، ولا يجبن.

يقــول أبو تمام في قصيدته التي يرثي بهــا محمــداً وقحطــبه وأبــا ناصر بن حميد الطوسي:

كــذا فلـيجل الخطــب وليفدح الأمر

فلــيس لعـين لــم يفض ماؤها عذر

فتــىً دهــره شـطران فـيما ينوبه

ففــي بأســه شـطر وفي جوده شطر

ومــا مــات حتى مات مضرب سيفه

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

تردى ثياب الموت حمراً فما دجى

لها الليل إلاّ وهي من سندس خضر

ثوى في الثرى من كان حيا به الثرى

ويغمر صرف الدهر نائله الغمر

والشهيد عند فرحان الخطيب هو رسالة مكتوبة بالدم وبالمهج يرسلها إلى وطنه وأمه وشعبه لأنه خشبة الخلاص التي تنقل شعبنا رغم تلاطم الموج وهدير العواصف، إلى الضفة الأخرى حيث الجباه شموخ يطاول الشموس زهوا والنصر غار يتوج بيارق المناضلين، حسب وصف الدكتور صابر فلحوط، وهذا صحيح عند فرحان الخطيب لأن لديه القصائد الكثيرة يزين متنها شخص الشهيد، ففي قصيدة رسالة من شهيد يقول:

إلى شعبي
أنا صوت يناديكم
أنا نبراس ليل طال في بلدي ليهديكم
أنا ودماء أشلائي
نواقيس الضحى منكم
فكونوا للعلا مهرا
وكونوا للفدا نذرا

وفي رثائه لأحد أبطالنا البواسل الذي سفحت دماؤه على أرض لبنان الشقيق، من أجل الحرية والكرامة يقول:

يا "أجود" يا رفة الهدب التي

أحنت على إنسان عيني، فارقد

يا بسمة الزهر التلاشت غدوة

يا طيف شلال على القلب الصدي

يا حقل قمح فارقته طيوره

يا لهفة اللقيا إذا لم يحصد

وكنانك يرنو بباب مضافة

أماه.. هل يأتي أبي بالموعد

آت أبي لابد أنه راجع

بالياسمين مطوقاً بالعسجد

فأطل من فوق الجموح مخضبا

وتقول أرتال الرجال تجلد

أبت شهيد.. لو لجرحك بلسم

أفديك بالروح بما ملكت يدي

ويستمر أبو تمام في حماسه واصفا بسالة الأبطال الذين يتغنى بمديحهم وانتصاراتهم في ملحمة كبرى يجسد بطولاتهم تجسيداً يدفع الحماسة في قلب كل عربي وتضطرم نار النخوة وتأج أجيجاً يدب الرعب في قلوب الأعداء:

لقد تركت أمير المؤمنين بها

للنار يوما ذليل الصخر والخشب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت

والشمس واجبة في ذا ولم تجب

وينافس فرحان الخطيب أبا تمام في قصيدته (أخت العلا) ويخاطب الرئيس الخالد حافظ الأسد:

أرض العروبة إن تسنم عرشها

وغد فعزها لن يسير وإن حبا

لكن شعبا يعربيا بالحمى

سيزيدها نارا على من أذنبا

يا حافظ والأرض تنخى أهلها

فالحظ بعين الشعب حبا أخصبا

درب الشهادة أو طريق خلاصنا

فازحف – رعاك الله – لن تتهيبا

قـدت الفـيالق فانـتخت أبطالهـا

عـشق العـروبة صـار فيـنا مذهبا

وعـندما تظهـر الأدلة القاطعة على خـيانة الأفـشين يندفع حماس أبي تمام معبراً عن قوة العرب وعدم تمكن الأفشين من تحقيق ما يريده:

الحـق أبلـج والـسيوف عـواري

فحـذار مـن أسـد العـرين حـذار

مكـراً بـين ركنـيه إلاّ أنـه

وطـد الأسـاس علـى شـفير هـار

حتـى إذا انكـشفت سـرائره اغتدوا

مـنه بـراء الـسمع والأبـصار

ويتحمس الشاعر فرحان الخطيب لبني جلدتـه الكرام اللذين يرفضون الذل ويشجبون الخـيانة لأنها عمل شائن ودسيسة تطعن ذوي القـرى من الخلف فيعلن أن الخيانة لن تعيش بين ظهراني قومه:

وعـزاؤنا أن الخـيانة لـن تعـش

فالـشعب يجـتث الحقيـر المذنـبا

أرض العـروبة إن تـسنم عرشـها

وغـدٌ فعـزها لـن يـسير وإن حـبا

لكـن شـعبا يعـربياً بالحمـى

سـيزيدها نـاراً علـى مـن أذنـبا

فكلاهمـا أبـو تمام وفرحان الخطيب يعبـران بحمـاس لا مثيل له عن محبة العرب لبعـضهم أو يـودون ذلك بصدق لا ريب فيه، ويوضـحون عـدم قـدرة الخائن على العيش بيـنهم، وهذه من ميزات العرب الحميدة التي ربـوا عليها منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا.

ويمـضي أبو تمام مفتخراً بالقادة العرب الذين يقـودون الحروب ضد أعدائهم فخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني والي أرمنية ينتصر انتصاراً سـاحقا على توفيل امبراطور بيزنطة مصوراً إيـاه كـيف ولـى الإدبار وكيف أصيب جنوده بالرعب:

ولمـا رأى توفـيل راياتـك التـي

إذا مـا اتلأبـت لا يقاومهـا الـصلب

تولـى ولـم يـأل الردى في أتباعه

كـأن الـردى فـي قصيده هائم صب

كـأن بـلاد الـروم عمـت بصيحة

فضمت حشاها أو رغا وسطها الشعب

ولـيس فـرحان الخطـيب بعيدا عن موقف الشعب العربي في أي مكان كان عندما يقـف ويدافـع عـن أرضه وعن كل حبة من تـرابه، فعلى أثر العدوان الأمريكي على ليبيا يقول في قصيدته (عشق الرمال):

هاجـت وماجـت أسـاطيل لهم مخرت

عـباب يـم وقـد أغـواهم الأشـر

فاستـصغر الـرمل أحلامـا لهم كبرت

والرمل - إن يعشق الصحراء - ينتصر

ومـتابعاً وصـف الشعب العربي في ليبيا:

يزجـي عـزائم من أمسوا لنا شهبا

وبالـسجايا وبالأقـدام يأتـزر

يـضوي دجـنّة ظلـم من دم سرب

والجـونة البكـر فـي كفـيه تعتصر





سلمى ..

شعر : أ. جابر خير بك

تساءلتُ عن سلمى ولم تستجبْ سلمى

فضقتُ بها ذرعا وحرت بها فهْما

فما بالها صدّتْ عن الوعد سمعَها

وكنتُ على أجفانها الكحلَ والحُلْما

لوتْ جيدَها لمَّا تلقتْ تساؤلي

كأن حبيبَ الأمسِ لا يعرف الإسما

تخلتْ فأضحى القلبُ حيرانَ هائماً..

وحباته سكرى وأحناؤه كلمى

وكانت علاجَ الروح إنْ مسَّها الضنى

وريحانة الأيام لو واجهتْ همَّا

تناستْ محبّاً خضّبَ الشَيبُ فَودَه

وكان بعينيها البشائرَ والنَجْما






وغابــتْ عــن الــولهان ظلمــاً فــذوَّبتْ

بهجــرانها الأحــناءَ واللحــمَ والعَظمــا

أبــتْ أن تــداوي جــرحَ صــبٍّ وســددتْ

إلــى الخافــقِ اللهفــانِ مــن طــرفها ســهما

طــوى جــنحَه المكــسورَ والــشوقُ ردَّه

يعانــي الــنوىَ والــبؤسَ والقهــرَ والظُلمــا

فهـــذي صـــفاتُ الغانـــياتِ يـــشدّها

شــبابٌ وتــنأى بعــد أنْ تقطــفَ الكــرما

*　　*　　*

لحــا الله أيــامَ الــشبابِ وســحرَها

فكــل الــذي يبقــى إذا شــيَّعَتْ وهْمــا

تمــرُّ مــرورَ الطــيفِ فــي العــين خلــسةً

وتــسرقُ مــن أيامِــنا الطــيبَ والطعْمــا

فــأين الهــوى والحــبُّ إنْ ودَّع الــصِبا

وأيــن الأماســي الفــيحُ والــسحرُ والنُعمــى

إذا مــضَّنا الــشوقُ المبــرِّحُ عــاودتْ

مدامعُــنا تجــري وتــستنطقُ الرَّســما








وتـــرجو إيـــابَ العمـــر لكـــنْ يـــردُّها
قــضاءٌ بأمــر الله قــد أصــدر الحُكمـــا

فـــتذرف عيـــناه الدمـــوع ثخيـــنةً
علـــى عمـــره المهـــزوم توســـعه شـــتما

فكـــم مـــن لـــيالٍ لـــوَّن الحـــبُّ صـــمتَها
قطفـــتُ أماســـيها وكـــنتُ بهـــا أعمـــى

تظـــلُّ علـــى الأجفـــانِ رسْـــماً معطـــراً
وتحفـــر فـــوق العـــين مـــن حـــسنها وشْـــما

إذا هـــاج خلـــف الـــصدر حـــرٌّ لهيـــبِها
وقفـــتُ علـــى الأطـــلال أشـــبعُها لـــثْما

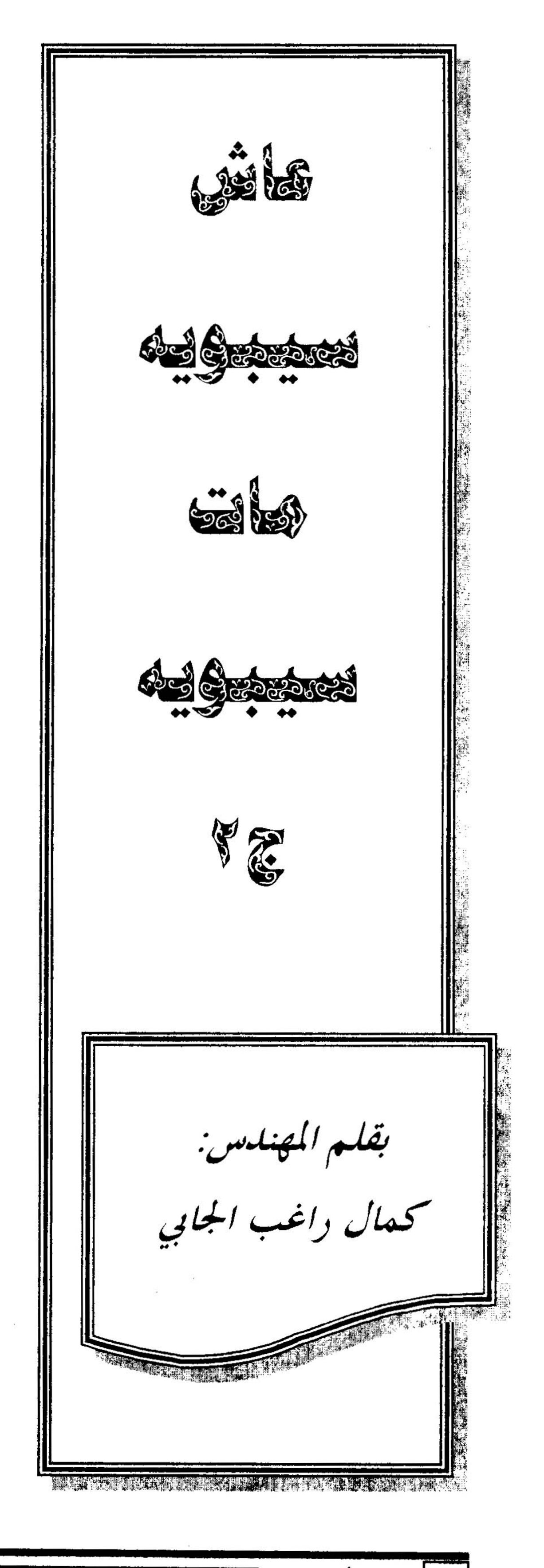
فـــيا غابـــرَ الأيـــام مازلـــتَ حاضـــراً
بفكـــري ومازالـــتْ جوارحُـــنا تدمـــى

وإنْ ضـــمني اللـــيل الطـــويل تكـــومتْ
بـــصدري همـــومٌ تـــبعثُ الـــيأسَ واليـــتْما

فتغـــرق بالدمـــع الهـــتونِ تحـــسراً
جفونـــي ومهمـــا فـــاضَ مـــدمعُها تظمـــى

ســـلاماً ســـلاماً مـــسرح الغـــيد بعـــدما
طـــويتُ بـــساطَ العمـــر وابـــتعدتْ (ســـلمى)



وأما ما يتعلق بتدقيق بعض ما ورد في الكتاب فهو أمر ينصب على الأرقام تحديداً. فقد لفت نظرنا المبالغة الكبيرة التي وقع فيها من نقل (جاك بيرك) في كتابه (العرب) عنه دون أن يذكر اسمه، والذي استشهد فيه المؤلف في كتابه، بأن عدد كلمات اللغة العربية هي بحدود مليون وتسعمائة ألف كلمة. وأن جذورها الثلاثية هي بحدود تسعة عشر ألف جذرا. وأن لكل منها حسب تقدير من نقل (جاك بيرك) عنه حوالي مائة اشتقاق.... وأنه بهذه الطريقة وصل إلى عدد كلمات هذه اللغة. كما لفت نظرنا ما استشهد فيه المؤلف في كتابه أيضاً بخصوص المبالغة الأكبر التي وقع بها (الزبيدي) الذي اختصر كتاب (العين) للخليل بن أحمد والذي أورد بأنه أحصى نحو ست ملايين ونصف كلمة عربية من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي. وهذا الرقم يزيد ثلاثة أضعاف ونصف عن الرقم الذي أورده (بيرك) في كتابه (العرب). ويؤكد على نزعة المبالغة ليس لدى أفراد شعبنا فقط بل لدى مفكرينا أيضاً. هذه النزعة التي هي مشتقة من المصدر نفسه الذي اشتقت منه البلاغة حسب تعبير كاتبنا الكبير....

وهذا الاختلاف الواسع يعود في تقديرنا إلى المبالغة الشديدة في تقدير عدد الاشتقاقات من الكلمة الواحدة. والذي يمكن لنا حسابه بشكل تقريبي من المعاجم المتداولة حيث يظهر بأنه بحدود عشرة اشتقاقات وليس مائة كما ورد في ذلك الكتاب وهذا يعني أن عدد كلمات اللغة العربيّة بحدود مائة وتسعين ألف كلمة وليس مليون وتسعمائة ألف كلمة. ونحن في حسابنا لعدد هذه الكلمات لم نأخذ بعين الاعتبار المفردات الفرعيّة التي تضم تصريفات الأفعال بأزمانها وحالاتها المختلفة والتي ذكر الكاتب بأن

الكلمة الواحدة تشكل أحياناً جملة واحدة . وأن لكلّ منها عشر دلالات وأورد كلمة قتلت مثالاً على ذلك وذكر عشر تصريفات لها قتلتُ - قتلتَ - قتلت.... لعله بهذه الطريقة فقط أي عند حساب الدلالات العشر يصبح عدد الكلمات الذي أورده (جاك بيرك) في كتابه صحيحًا ويختلف الأمر، حسب تقديرنا، بالنسبة لعدد كلمات كل من اللغتين الإنكليزيّة والإفرنسيّة الذي أورده الكاتب الكريم في كتابه القيّم. فبينما نعتقد أن عدد الكلمات الخاصّة بهما عند حسابه من معاجمهما المتداولة لا يشكل أكثر من عشر الرقم الذي ذكره أي حوالي (٢٥ ألف كلمة بالنسبة للإنكليزية و٣٠ ألف كلمة بالنسبة للإفرنسية فقط) فإن باقي العدد، أي التسعة أعشار الباقية، يتشكل بعضها من تصريفات الأفعال إذا أن لكل فعل من اللغة الإفرنسية مثلاً حوالي خمس عشرة حالة على سبيل المثال بينما يتشكل بعضها الآخر من الكلمات العلميّة المتخصّصة التي يوجد لكل فرع من فروع العلم مفرداته الخاصّة، ومعاجمه المتجددة والتي تضمّ فيما تضم أسماء المبتكرات الجديدة التي تتزايد يوماً بعد آخر. وأما بالنسبة للمفردات العلميّة في اللغة العربيّة فأغلبها لا يزال يحتفظ باسمه الأصلي في لغة البلد التي تم ابتكاره فيها. باستثناء المفردات الطبية التي كان لجامعة دمشق قصب السبق في تعريبها عند تأسيس كلية الطب فيها ومفردات علميّة متناثرة أخرى جرى تعريبها من قبل المجامع اللغوية العربية لكنه لم يجر استخدام أغلبها حتى من قبل المختصين في الفروع التي تندرج تحتها....

وفي هذا السياق قد تكون من المناسب المحافظة على أسماء المكتشفات العالميّة بلغتها الأصليّة. تمجيداً لمن اكتشفها من جهة، وتمهيداً للتقارب الإيجابي بين شعوب العالم أملاً في هدم الحواجز العدائية القائمة بينها عن طريق العلم الذي تتسارع مسيرته في أغلب دول العلم بعد أن فشل الأدب، الذي يأخذ المنحى القومي غالباً، في هذا المجال....

والأمر الثاني الذي يلفت النظر أيضاً في مجال الأرقام هو الاختلاف الكبير بين أعداد مترادفات بعض الكلمات في مصادرها المختلفة. وهذا الاختلاف ينبغي التدقيق فيه وإعطاء رقم موثوق به له. إذ أنه من المؤسف أن نجد أرقاماً متباينةً في المراجع المتخصّصة بهذا الشأن. وإذا كان هنالك صعوبة في إحصاء أعداد المترادفات التي استعملت على مدار التاريخ بالنسبة لأي من الأسماء أو الأفعال أو الصفات. فإن إحصاء ما يستخدم منها حالياً أمر ضروريّ ومفيد. إذ ليس مهماً أن نعرف بأن هنالك ٢٥٥ اسماً للزرافة و ١٨٨ اسماً للبئر في اللغة العربيّة كما ورد في كتاب المؤلف بل الأهم أن نعرف الأسماء التي لا تزال تستعمل منها حتى الآن والتي نعتقد أن المألوف منها والمعروف لا يزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة وأن المستهجن ونادر الاستعمال قد يبلغ عدد أصابع اليد الثانية وأما باقي الأسماء فقد عفا عنها الزمن. ولعل الفارق الكبير بين التقديرات المختلفة لأعداد كلمات اللغة العربيّة حسب ما ذكرنا أعلاه يعود إلى أن المعاجم الحاليّة الأكثر انتشاراً لا تدرج إلا الكلمات المعروفة والكلمات قليلة الاستعمال وأنها أسقطت الكلمات المهجورة من تلقاء نفسها.

وأما الأمر الثالث فإنه يتعلق بإعراب الأرقام والذي تكتنفه بعض الصعوبات وبخاصة في حالة الأرقام المركبة. إذ نتصور بأن المطالبة السابقة بتبسيط قواعد اللغة وتسهيل استخدامها

يجب أن تشملها بهدف التخفيف من تعقيداتها وجعلها في متناول من يستعملها بيسر وسهولة.

* * *

وإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى ضرورة ترقيق استعمال اللغة. وتطرّقنا إلى السبل الذي ينبغي توجيه الاهتمام إليها حتى تصبح اللغة المفصّحة المهذبة للغة الفصيحة، واللهجة الموحّدة الجامعة للهجات المحلية محبّبتين إلى النفوس ومقرّبتين إلى القلوب، لوجدنا أنفسنا في مواجهة الأسلوب الذي ينبغي أن يقدّم عن طريقه الكلام المكتوب أو المنطوق إلى الآخرين باعتبار أن الأسلوب هو الطبيعة التي تفرض نفسها وتندلق على الطريقة التي يتبعها الناس في التعبير والتطوير والتأثير خلال الحديث والحوار أو خلال ما ينشر من أفكار وأشعار. وكلما جعل الأسلوب اللغة المفصّحة أو العاميّة الموحّدة قريبتين إلى اللسان كلما جعلهما قربتين من الآذان. كلما أمعن في هذا القرب كلما قرّبهما إلى القلب......

والأسلوب الشائق الواثق والسهل الممتنع هو الأسلوب البليغ من غير مبالغة والمتأنق من غير تبرّج، والمتزوّق من غير بهرجة. والذي يعطي الكلام إحساساً بالحركة، ويشدّ متلقيه إلى مرسله، ويربطه معه بخيط سحري، ويدفعه إلى تتبعه كما يُشدّ الجائع إلى أصناف الطعام الشهيّة المتنوّعة التي أحسن طهيها وتقديمها في آن معاً، وكما يجذب المراهق إلى مفاتن امرأة تتعرّى أمامه، وترمي بقطع ملابسها عليه، لتصبح بعد ذلك نصاً واضح المعالم، بيّن القسمات، ويدعوه إلى احتضان فقراته ومعانقة تفصيلاته. ويحرمه من النوم مهما كان تعباً ويحمله إلى عالم الرؤى والأحلام الجميلة. ويبعده عن عالم الأسى والأوهام الذليلة....

ولقد تطور الأسلوب بتطور الذائقة الأدبيّة منذ قديم الأزمان إلى حاضرها وبشكل ملحوظ فبينما كان الأقدمون يلجأون إلى الأسلوب الجزل أي الأسلوب الفخم الذي يستخدم الألفاظ الضخمة العظيمة التركيب الصلبة التأثير كالحجر الكبير الذي يرصف بجانب بعضه لإقامة قصر منيف أو كالخشب القوي اليابس الذي تتكسر عليه الرؤوس والنفوس. صار المحدثون يلجأون إلى الأسلوب الرشيق ذي القدّ الحسن اللطيف والذي يرمي الآخرين بسحره كما ترشق النبل الآخرين برؤوسها الحادّة. ويشابه تطور الذائقة الأدبية تطور الذائقة الجمالية بما يتعلق بالنساء. فبينما كان الأقدمون يفضلون المرأة الضخمة الفخمة عظيمة الثديين والردفين صار أغلب المحدثين يفضلون المرأة النحيفة الخفيفة الرشيقة الرقيقة ضامرة الخصر والتي لا يميل ردفاها إلى التكوير والتدوير.....

والبلاغة في اللغة أو بلوغ الهدف عن طريقها له علاقة ماسّة بالتراث وبالحداثة وهي كالغواية في الشعر أو الغلالة للمرأة، لا ينبغي أن تكون هدفاً بحدّ ذاته... ومقولة اللغة للغة كمقولة الفن للفن والزينة للزينة، ترف يتماشى مع انتعاش التبر وانكماش الفكر...

وفي كلّ الأحوال، إذا كانت اللغة المفصّحة هي المرأة اللعوب والعروب فإن الأسلوب هو الرجل اللصوق المحب الذي يكسبها نضارها بعد أن يسبر أغوارها. وإذا كانت اللهجة الموحّدة هي الوطن الدافئ والحاضن فإن الأسلوب هو المواطن الحاني والحامي الذي يتجول بين جنباته، ويتقوّت على خيراته... وإذا كانت اللغة ولهجتها هما العريشة التي تظلل هذا الوطن، والأريج الذي ينبعث من نسائه، والعبق الذي يتضوّع من رجاله. فإن الأسلوب هو نسيم

هــذه العريــشة ونعيمها. والزهر المولد لعبقها والمــتولد عــن أريجها. ورحم الله البدويّ الذي قال:

وتوجــز في قارورة العطر وردة وتوجز في كأس الرحيق كروم

* * *

وإذا مــا وصلنا بعد هذا العرض السريع إلــى الــنقطة الأخيــرة التي سنتناولها في هذه المداخلــة والخاصّة بالتعليق على بعض ما ورد فــي هذا الكتاب فإننا نمهد لما ستقوله بالإقرار بعــدم وجــود إجابات قاطعة على ما سنثيره من مــسائل. وبالإشــارة بأنــنا لا نعتبر ما سنذكره حقائق تاريخية في الوقت نفسه الذي لا نعتبر ما ذكــره الكاتــب الكريم يجسّد هذه الحقائق أيضا. لكــن الأمانة العلميّة تفرض علينا عرض الرأي ونقيــضه إلــى أن تثبت الأبحاث صحّة أحدهما وترجحه على الآخر...

والناحــية الأولى التي نرى أنها تستحق التعليق تدور حول ما أورده الكاتب في الصفحة الــسابعة والعشرين من كتابه بأن (المنطق يقود بــأن الله تعالى قد تحدث إلى النبي موسى، حتىّ فــي حالة الإيحاء إليه بالمعاني دون اللجوء إلى لغــة معيّــنة، بلغــته الأم وهــي المــصريّة القديمة)....

ونقول تعليقا على هذا القول بأن الاتجاه الحــديث، أو الاتجــاه القــديم الذي تمّ اكتشافه حديثاً، بأن النبي موسى لم يوجد في مصر وادي النــيل فــي ذلك الزمان، وإنما وجد في الجزيرة العــربيّة وفي منطقة عسير وما جاورها وليس فــي أيّ مكــان آخر. وأن الأحداث الواردة في الــتوراة والمتعلقة بالبدايات حصلت في جزيرة العرب ويقود هذا الاتجاه عدد من الباحثين الذين نــذروا أنفــسهم لتوصــيل وجهــة نظرهم إلى الآخرين منهم الدكاترة (كمال الصليبي) و (أحمد داود) و (زياد مني) وغيرهم في عدد من الكتب والأطروحات الجامعية القيمة التي أصدروها في هذا المجال....

ويــؤيد هــذه النظــرة أن الإحداثــيات الجغــرافيّة، والأحــداث التاريخية، والمحاكمات المنطقيّة تشير إلى أن المواقع الواردة في كتاب الــتوراة، بما يتعلق بنشأة النبي موسى وحادثة الخــروج، مكانهــا في جزيرة العرب وليس في مــصر وادي النــيل. وأن الالتباس حصل نتيجة الخلــط بــين قــرية (مــصرائيم) الموجودة في المنطقة التابعة لعسير في الجزيرة العربيّة وبين لفــظ مــصر (وادي النيل) من جهة. وبين كلمة (فــرعون) التــي كانت تطلق على ملوك مصر وادي النيل. وكلمة (فرعة) التي كانت تطلق على وكلائه في المنطقة من جهة أخرى.....

ويؤكد هذا الكلام ما ذكره (الطبري) في تاريخــه بــأن فــرعون مصر الذي عمل النبي يوسف في قصره (والنبي يوسف هو سلف النبي موســى البعــيد كمــا توحي التوراة) كان اسمه (قابــوس بــن مصعب) وأن زوجته التي راودت النبــي يوسف عن نفسه كان اسمها (آسيا بنت مــزاحم) ويلاحــظ بوضــوح أن هذين الاسمين عربيان وليسا من أسماء فراعنة وادي النيل....

ويــؤيد هذا الاتجاه أيضا عدم توفر أية آثــار مكتشفة تشير إلى وجود النبي موسى في مــصر وادي النــيل أو تشير إلى حادثة خروجه مــنها. وبالشكل نفسه الذي لم تكتشف أية آثار تثبت وجود قومه في فلسطين في مرحلة متقدمة مــن تــاريخهم. وتــرجّح هــذه النظرة بأن هذا الوجــود فــيها لم يتم إلا بعد السبي إلى (بابل). حــيث وجد المسبيّون العائدون منها أن فلسطين أقرب، وأن ماءها أعذب، وعسلها أطيب. ولبنها

لا ينضب. فحلوا بها بدلاً من عسير. وجذر المحرفون الذين أعادوا كتابة التوراة في القرن الخامس قبل الميلاد بسبب فقدها خلال السبي هذا المنحى الذي حفر في ضمائر الأتباع من اللاحقين بعد أن اعتبروه حقيقة تعلو على الشك بصحتها. وبخاصّة عندما لمسوا منافعه، وأحسّوا بفضل الأولين الذين أورثوهم هذه الأرض بموجب عهد الهي طوّبها لهم (يهواهم) في دوائر المصالح العقاريّة أو (الشهر العقاري) التابعة له دون أن يحق لأحد أن يعترض على ذلك. كما جعل منهم أسياداً وشعباً مختاراً، وجعل من الآخرين أوغاداً أو أغياراً.....

ونكرّر مرّة ثانية بأننا لا نرمي من وراء ما ذكرناه إلى التأكيد على صحته بقدر ما نرمي إلى التأكيد على منطقيته. إذ لا يمكن لقارئ التوراة وباقي أسفار (العهد القديم) إلا أن تعتريه حالة من الاستغراب الشديد لعدم إمكانيته من مطابقة المواقع والوقائع الواردة فيها على الواقع الجغرافي الحالي لفلسطين العربيّة والوقائع التاريخية التي مرّت عليها. بينما تؤدي قراءه الكتب والأبحاث التي تطرح هذه النظرية إلى تضاؤل هذه الاستغراب أو تلاشيه. والى زيادة الاقتناع بالمقولات الواردة فيها كلما تعمق في تفصيلاتها، والأمر في كلّ الأحوال متروك للبحث العلمي المتعمق المقرون بالاكتشافات الأثرية القاطعة في قادم الأيام....

والناحية الثانية التي نرى أنها جديرة بالتعليق أيضا هي التي وردت في الصفحة الثالثة والسبعين من الكتاب والتي يورد فيها الكاتب اختلاف العلماء حول أيّ من الحضارات ظهرت فيها الكتابة أولاً أهي حضارة مصر أم حضارة سومر. كما يورد تأكيده على أن الحضارة المصرّية كانت أكثر تطوراً ونضجاً وأنها تركت آثاراً لا زالت تبهر الإنسانية...

ونقول تعليقاً على هذا الكلام بأنه مع تسليمنا بأن الآثار التي تركتها الحضارة المصريّة تدل على عظمة ونضجٍ فائقين فإن القيام بالتأكيد كالقيام بالتعميم أمران يتطلبان توفر نتائج قاطعة تسمح بهما. وقد يتنافى ذلك مع تتالي ظهور نتائج الكشوف الأثرية في البؤر الحضارية المختلفة التي تجري فيها حفريات التنقيب على قدم وساق وأنه رغم وجود من يؤكد من العلماء بأن الحضارة الإنسانية بدأت من سومر. وأن لكل إنسانٍ في هذا العالم وطنين، الوطن الذي يعيش فيه، وسوريا... فإن هذا الكلام يسري على مدى التطور والنضج الذي وصلت إليه الحضارات المذكورة....

* * *

وإننا إذ نكتفي بما ذكرناه نعود لنبدي إعجابنا الكبير بهذا الكتاب الهام وبالمنهج الذي اختطه كاتبه، والمعلومات القيمّة التي أوردها فيه، والأسلوب الجريء الذي تمّت معالجة موضوعاته بوساطته...

ونستثني من هذا الإعجاب عنوان هذا الكتاب، أو على الأصح الشق الثاني من هذا العنوان. إذ لا يمكن في تقديرنا لأي ناطق باللغة العربيّة إلا أن يكون محباً لها وبالتالي لا يمكن له إلا أن يتمنى لها أن تحيا، ليس بمعنى أن تعيش كما يردّد أعلانا صوتاً عادةً في الهتافات المظاهراتيّة (تعيش) فيردّد المتظاهرون وراءه ثلاثاً (تعيش، تعيش، تعيش) معتبرين أن ما هتفوا به سيتحقق بعد هذه الهتافات الثلاثة بالشكل الذي يتحقق فيه انفصالنا عن زوجاتنا بعد الطلاقات الثلاثة...

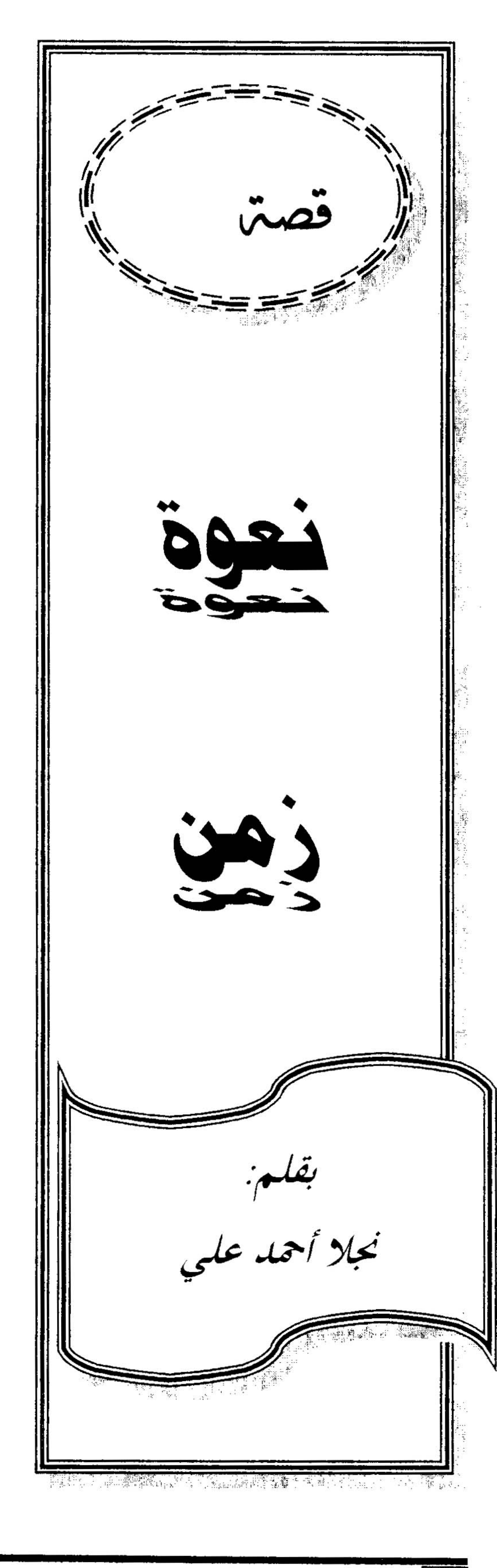
نقــول لا نريد للغتنا الحبيبة أن تحيا أو تعــيش بهــذه الطريقة لأنها ستصبح بوساطتها ظاهــرة مظاهــراتية، كمــا كان العرب في جزء طــويل مــن تاريخهم ظاهرة لغويّة القول لديهم علــى مرتفعٍ عالٍ، والفعل في قاع الوادي... بل نــريد لهذه اللغة أن تحيا عزيزةً كريمة مرفوعة الــرأس منــصوبة القامــة، بيّــنة المعالم جليّة المعانــي، ســهلة القواعد سلسة القياد. تكشف ألفاظهــا أبعــاد أفكارهــا بكلّ وضوح. وتضيء كلماتهــا حدود رؤاها وتزيل عنها التيه والعماء. ويتحدّ فيها الدال مع المدلول. ويتوحّد التعبير مع التفــسير. وتتماهى التراكيب مع المقاصد... لأن في حياة لغتنا حياتنا، وفي تطوّرها تطوّرنا. فهي ضــميرنا، والمعبّرة عن شموخنا. ولأن تاريخنا مخــزن فــيها، وتــراثنا معبأ بها وعقيدتنا تعجّ بمفــرداتها. وأدبياتنا تحفل بتركيباتها ومستقبلنا مــرتبط بتشكيلاتها.. فهي التي تمدّنا بالومضات الــروحانيَة الدّفاقــة الصادقة. وتزوّدنا بالنفخات الوجدانــيّة الرقــراقة الواثقة التي يدور بعضها حــول المكارم المفقودة ، والمحاسن الموءودة، والــسجايا المحمــودة ويطل بعضها الآخر على منائــر الماضــي، ومغائــر الحاضــر، ومعابر المــستقبل. ويــتلمّس القسم الأكبر منها أسرار الوجود، وألغاز الكون، وحقائق الحياة....

وبالقــدر الــذي يحرص فيه محّب هذه اللغــة علــى تــرديد عبارة (تحيا اللغة العربيّة) بالطريقة التي أشرنا إليها. يصعب عليه أن يردد الــشقّ الثاني من العنوان الذي أشار له الكاتب بعــبارة (ليسقط سيبويه) وهو مرتاح الوجدان. فسيبويه هو واحد من عظمائنا، وليس من شيمة الــوفاء أن نطالــب بــسقوط العظماء. وهو مع الخليل بن أحمد الفراهيدي كانا من أشهر علماء مدرســة البصرة التي كانت تنادي بإعمال العقل في وضع قواعد اللغة. مقابل مدرسة الكوفة التي كــان يتزعمها الكسائي، والفرّاء، وابن السكيت، والتي كانت تصّر على نقل كلّ ما قاله العرب كما جــاء علــى ألسنتهم، ووضع القواعد بناء على ذلــك. وهــي المدرسة التي انتصرت في النهاية رغــم جهــود بعض العلماء مثل ابن جني وابن قتيــبة للتوفيق بين المدرستين، وحسب ما ورد في الصفحة الرابعة والستين بعد المائة من كتاب المؤلــف نفــسه... ولا نتصور أنه من المناسب بعد هذا الكلام أن نطالب بسقوطه رغم ميله إلى المنحــى العقلانــي. وأن نعاملــه معاملة بعض الطغــاة الــذين أساءوا إلى شعوبهم لميلهم إلى المنحى العدواني....

وأما ما يمكن أن نقوله بهذا المجال فهو أن (سيبويه) مات وأن نطلب له الرحمة لأنه قدّم ما أمكن له تقديمه بعقلانيّة. ونحن إذ نكرّر هذه الكلمــة مــرّة أخرى فإننا نفعل ذلك لأنها السمة المفقــودة لــدى معظمــنا فــي الماضي، علماء وعامّــة. والتــي لا تزال مفقودة لدى أغلبنا في الحاضر متعلمين أو أميين...

ونحــن لا نعني بهذا الكلام الدعوة إلى التمــسك بمــا أقــرّه (ســيبويه) أو غيــره من الشخــصيات الفكــريّة الــبارزة في تاريخنا، بل بــالعكس. فــنحن مــن أنصار عدم التزوّد من الماضــي إلا بما يفيدنا في الحاضر. مسترشدين بهذا المجال بوصيّة الإمام علي بتعليم أولادنا ما ينفعهم لأنهم خلقوا لزمانٍ غير زماننا..

ومــن هــذا المــنطلق، وباعتــبار أن (سيبويه) مات فإن ما قام به قد مات بموته ولم يــبق منه إلا ما هو نافع للأجيال التي أتت بعده. لذلك فإنه كان من الأفضل، في وجهة نظرنا، أن يكون عنوان الكتاب (فلتحيا اللغة العربيّة بعد أن مــات ســيبويه) وأن يكــون جوابنا على من لا يعجبه ما أوردناه، وعلى من يهتف قائلا (عاش سيبويه) بأن نقول له.. لا.. (مات سيبويه).



ذات مساء، أطبق الاكتئاب على صدر (طـرطوس) أسـدلَ على الشوارع والساحات فأذبـل الـنفوس ووشـح السحنات باصفرار وسـهوم، كـان اليوم غائماً، لاحت فيه بوادر التـشتت والـشّعث علـى المكـان والـزمان والإنسان.

لـم تكن المدينة الخاملة لتصدق أنها ستـشهد حدثاً فريداً في ثاني أيام موجة صقيع تـدهمها، وأنّ فرقة مشاة ستؤم شوارعها في مـسيرة غير منتظرة، فتشحذ حواسّها لمراقبة ما يجري بحيادية بلهاء وتخاذل جبان.

سـاحة (المشبكة) الأزليَة لا تفتأ تعلن علـى المـلأ أنها قلب المدينة وسواها الأذرع والأقـدام، وتـشمخ بـساعتها المنغرزة وسط (الـدوّار) كجاسـوس يستقصي خطرا محتملا فيرشق الجهات بنظرات منذرة.

قـبالة الساعة في اتّجاه جنوب شرق، تهالكـت سينما (العباسية) على رصيف واطئ كعجـوز (نحـس) أعـيا أنفاسها تقادم العهد، ونـضح مـن عينـيها شوق لمجد غانية أفل نجمهـا إلاّ مـن بـريق يغري طفلاً مشرداً أو غلاماً تعساً بالاقتراب. أمّا روادها من البالغين فيـصعب الـتكهن إن كانوا بشراً أسوياء، أم استولت عليهم البلادة.

علـى الضفة الثانية للشارع الرئيسي يقـدّم مطعـم شـعبي وجـبات سريعة لزبائن عابـرين، وتسمح الواجهات الزجاجية للمطعم بـتأمل منظـر جزئي لشارع الثورة في ذروة نشاطه.

علـى امتداد المطعم بانحراف شمالي غربـي يـصادف المستكشف لطرطوس محل عطور أنيق ومخزن فخم للألبسة الأجنبية.

وعلـى الكتف المقابلة للطريق تتربع الحديقـة المركـزية بأبهى إطلالة شمال شرق الـدوّار، ويـشكل شارع الثورة الذي تتوسطه الـساعة عمـودا فقريًا للبلد تتفرّع عنه أذرع وذيول.

في هذا المكان من طرطوس، حوالي الخامسة من مساء /١٨/ شباط ١٩٩٩.. لفظ الزمن آخر أنفاسه، وأحنى عنقاً تعمشقت به خطايا بني آدم حتى لم يعد يقوى على الانتصاب..، وكان على الساعة البرجية أن توقف عقاربها احتجاجا على ما وقع في حضرتها، لكنها أوتيت قدرة فائقة لاستئناف العد خارج نطاق التاريخ مراهنة كبعض شهود الواقعة أنّ (العيان سيعلن زواله) قريباً.

عند مدخل بوابة ثانوية للحديقة، انتحى بائع (ترمس) بعربته.. إلى جواره تربّع طفل على كرسي واطئ من القش.

على حائط السينما استند شخص مكتوف اليدين، ذو لحية أتت على معظم وجه نحيف أسمر يشيع الارتجاف في الأوصال.

أمامه على بعد خطوات وقفت امرأة مكتنزة وشابة نحيلة تنتظران باص النقل الداخلي، ولاح من اضطراب ملامح الفتاة أن (تلطيشا) مقذعا يصلها من وشوشات المتطفل الغريب.

أمام المطعم، فوق صندوق مهمل جلس شيخ نحيف مسندا ذقنه على عكاز استقرت ساقه بين ركبتيه، وجسّد بمعطفه الكئيب وغطاء رأسه المنحسر عن صلعة مرقطة أنموذجا لمشردي الحروب أو ضحايا الفاقة والعوز، بالقرب منه رجلان ضخمان يأتيان بنهم على شطائر (جبن) فيما تجمهر بعض ناشئة قدّام متجر الألبسة المستوردة يحدقون بوقاحة في السيقان المكشوفة لعارضات أزياء من البلاستيك الخاص.

وعلى رصيف الدوّار انزرع شرطي مرور بوجه عابس وصفارة تماهى صراخها الحادّ بزعيق رياح مشبوبة بعثرت منثور الأوراق المصفرة والأتربة الناعمة في الطرقات والعيون.

بقي كل شيء راكداً ناعساً حتى أفلتت صرخة استنكار من إحدى أربع بنات دلفن إلى الشارع..، وما أسرع ما صوبت السبابة سهمها في اتجاه السينما، وسجل (الأنا الأعلى) أوّل أحكامه:

- مجنون... انظروا... مجنون..

شبّت نارٌ في هشيم، وتداعت الأنظار من كل ركن مسلطة سيوفها على شاب ثلاثيني قصير، مربوع، ضاقت على بطنه النافرة كنزة بنيَة من قطن رديء، انزاحت قليلاً لتبرز انخماصاً جلدياً مستديراً كاد يضيع في تلافيف البطن المترهلة.. ولطخت الأكمام بقع صفراء نجمت عن إتيان التمخط في غير أصول.

تحت البطن المندلقة ظهر حزام رفيع من المطاط الأبيض، بالكاد لملم أطراف (بيجاما) مهترئة انفصلت عنه لتشكل فجوة عند الخاصرة اليمنى، وأخرى واسعة في الخلف، وكان من دواعي الأسف أن تفضح الفجوتان غياب اثر اللباس الداخلي وتكشفا عورة الرجل في وضح النهار..

كان يمضي قاطعاً الشارع بقلق ظاهر، وتوتر يائس، وجهه أحمر منمش، شعره أجعد تدلت خصلاته شعثاء على جبهة عريضة وعنق ثخين.. واتصل سالفاه بلحية قذرة اتفقت مع حاجبين غليظين وملامح خشنة على إحياء مشهد لإنسان الحضارات الأولى.

على باب الحديقة.. توقف ابن بائع الترمس عن قرط الحبّات الصفر، ووثب إلى كتف أبيه الذي ابتعد به مسافة خمسين متراً لمعاينة المشهد عن قرب.

وكفّ المراهقون غلاظاتهم عن حسناوات محل الأزياء عابرين الشارع بحماس أعمى، مسابقين حركة المرور الخطرة وصولا إلى الساحة حيث يمضي المجنون هاربا.

العجوز المركون على باب المطعم تلقى المشهد ولم يعه مباشرةً.. ثم أجفل

فاستقام على عكازه بصعوبة، ممعناً النظر في الطرف المقابل ماسحاً جفنيه المحمّرين بطرف شاله.

ودهش الرجلان النّهمان فعافا الطعام ولا حقا عابر الطريق بعيون هازئة.

على الرصيف الدائري ما عاد شرطي المرور يبالي بمخالفات السير وانجرف مع آخرين في تتبُع حدث فريد.

وعلى رصيف السينما الذي يبعد أمتاراً عن (الدراما الحيَة) انقطع الرجل المشبوه عن التحرش بالبنت وأمها، وهاتان انشغلتا عن الباص وعن التذمر من الرجل مع أنه اقترب وحاذاهما.

فالكلّ متأثر بعدوى القطيع، منجذب بقوى قسرية لرصد عُري رجل يعبر قلب المدينة في معمع عاصفة.

أربعُ البنات انزوين جانباً.. غضضن الأبصار حياءً وشفقة، توقفن عن السير في انتظار اختفاء (المجنون) من الشارع خلافاً للحافلات التي أبطأت سرعتها لتواكب محنة عابر السبيل فتأخذ نصيبها من الانشراح والفرجة.

تابع المجنون سيراً لا يحسد عليه وسط الشارع متحاشياً الدنو من الرصيف اليميني حيث احتشد الناس، واستطالت قاماتهم خلف المرأة والبنت والرجل المريب.. واهتدى وهو يمضي قدماً إلى فكرة تسعفه من حيرة وعار، فانحرف صوب الحديقة الطولانية الفاصلة بين شطري الشارع، هناك، ينأى عن (المتفرجين) وتتكفل شجيرات النخيل العتيقة داخل السياج الحدائقي بحجبه قليلاً عن الرجال الثلاثة الواقفين عند المطعم ومن انضم لهم من مشيعين.

(البيجاما) المتآمرة، أمّ الرّقع والفجوتين والأطراف السفلية المهترئة رفضت الاستجابة لكفين خشنتين لم تكفّا لحظة عن شد قماشها المتراخي ولفّه حول الحبل المطاطي علّه يثبت عليه، لكن سرعان ما ينزلق على إيقاع خطّى عجلى فاتحاً (شباكي) عار على اليمين والخلف حتى إذا انزلقت العين للأسفل أبصرت قدمين حافيتين ذواتي أصابع مشعرة وكعبين مطرزين بشقوق غائرة.

الرّيح شمالية غبراء.. بحر هائج من موج نشط مرئي يتكسر عند الساعة حيث تتضارب الجهات وتتباعد العمارات الشاهقة مفسحة مكاناً لإمارة الساحة على المدينة دون منازع.

ما إن حاذى المجنون في سيره مدخل سوق (الصالحية) حتى تشكلت خلفه مسيرة افتتحها المراهقون بالتصفير والتندّر المسفّ، ولحق بالرّكب أطفال تسوّلوا في طرقات البلد أياماً وعادوا صفر اليدين.

وهبط الساحة نزلاء الفنادق الرخيصة الضّجرين، وساهم معظم من مروا (مرور الكرام) في مرافقة موكب الرجل الضليل الذي اشتم رائحة تآمر، فضاعف سرعته هرباً. وضاعفها الماجنون فأدركوه بسهولة.. وقف برهة ملتفتاً حوله بحيرة ومهانة قبل أن يلتقط جريدة وسخة لفّها حول خصره فاشتد التصفير، واحتدّ هتافٌ ولمزٌ خبيث.

وطارت (ناعوسة) المدينة وهي تتابع بعينين مغتبطتين مسير قافلة تهادت خلف قائد تعس على طول شارع الثورة، وكم سهل في ظرف كهذا أن تتلقى خاصرة البنت قرصة من الرجل المتطفل الذي تركها وشأنها لاحقاً بالآخرين.

وغدا يسيراً على العجوز أن يختطف بقايا (السندويشات) التي عافها الرجلان في لحاقهما بالمسيرة فمكثت على طاولة قريبة من مدخل المطعم.

وباتت عربة الترمس وحيدة على الرصيف دون أن يفكر أحد بسرقتها.

وعبثت الريح (بالتيورات) المعروضة في محل الأزياء بعد أن خرجت العاملات وأشرعن الأبواب فجعل الغبار يرشق بعنف شاشة الكومبيوتر المسمرَ في قسم المحاسبة.

وبقيت البنات الأربع واقفات كشموع مطفأة دون أن يجرؤن على استراق نظرة إلى الرجل الهارب والحشد الماجن خلفه، وتناهت إليهنَ قهقهات مارّة انضموا لشرطي المرور الذي بارحه الهمّ تماماً وتهلّلت أساريره لطرفة ما يدور.

وختم كثيرون تفكّههم على الرجل بتصاريح موجزة:

- مجنون.. أو سكران.. أو الله أعلم.

آخر ما فعله المجنون ردا على المهزلة التي ارتكبها مطاردوه ويئس من ردعها، جلوسه على الرصيف، وبعد أن صوّب نظرة يتيمة ملؤها أسىً إلى وجوه المهرجين الذين التمّوا حولهُ كأنما ليخنقوه.. دس يدهُ في كُمّه وأخرج شيئاً كالخبز وشرع يأكله بأناة وهدوء، ولم يرفع رأسهُ بعدها.

* * *

عدلت البنات الأربع عن التسوّق، وذهبن كلٌ في ناحية، واخترتُ - وكنت إحداهنَ - طريقاً إلى مطبعة أعرفُها.

فكرتُ خلال سيري بموضوعية أن يكون المرء (مجنوناً) أو (ثملاً) أو منحلاً أخلاقياً، ويجهد في الوقت ذاته لستر عُريه عن الناس، واهتديت إلى اعتقاد مفادُهُ أنّ الأحكام التي تصدر عن البشر بوصفهم حيوانات (عاقلة) قلّما تتسم بالتبصر والعقلانية. وحتى لو أُدينَ المجنون بهذا الداء أو سواه فهل كان صعباً على تجّار الأقمشة والألبسة الجديدة أو المستعملة أن يهبوا خرقةً أو منشفة أو ذراع قماش أو ثوباً بالياً يُداري سوأة سكّير أو مخبول أو مختل أخلاق؟!

في ١٨/شباط ١٩٩٩، لم أكن أعلم أنني والحزن على موعد، فيما تنطرب مدينتي، ويهلّل أهلها ويهزجون لمرأى غريب جهد لمواراة عاره عن أنظار الناس وشماتاتهم.

جاش الحزن نقمةً عارمة في صدري، فاقتحمت المطبعة كلصوص البنوك. بعد شرح دهش له الحاضرون، مكثت وقتاً ثم غادرت وبيدي رزمة أوراق رحتُ ألصقها على الجدران.

قرأ بعض الناس المنشور ونظر إليّ بغرابة، وثمّة من أومى إليَّ ليستفسر عن أمر، وآخرون تهامسوا، وكثيرون بدؤوا يتعقبون في تقدّمي الحثيث بمنشوري عبر أحياء المدينة.

قد تتشكّل في إثري مسيرة أو يُقال أني مجنونة و ثملة أو الله أعلم.

مع هذا شعرت بهدوء حميم عمّني في ختام يوم عاصف إثر لصقي للورقة الأخيرة وكان كتب عليها:

"عموم آل بني آدم بأصولهم وفروعهم، من كل مكان وزمان بأنسابهم المعمّرة في التاريخ والمستحدثة فيه، وألقابهم المتجذّرة في أحشائه والعالقة على جلده.

ينعون إليكم بروع لا يدانيه روع.. موت فقيدكم الذي لا يعوّض

الزمـــــــان

الوقت أضيق من أن تُقام معازي أو تُقبل تعازي..

الوقت وقت احتضار..

فليحمل كلٌ منكم فأساً فيحفر قبرهُ بيديه، وجميعكم.. ناساً كنتم أو غير ناس، ملائكة أو قطاع طرق، أحياء أو شبههم، موتى أو ما يعادلهم..

وزمنكم معكم إلى بارئكم عائدون ..




ماتَ مسموماً..

شعر: نائلة الإمام

يجيئني ليلا
على شفتيّه
قبلتُهُ الأخيرةُ راجفه
نسرٌ تهاوى من قممْ
يأوي إليّ
كمثلِ عصفورٍ بليلْ
في كفّ ريحٍ عاصفه
يهذي
يحمّلني جريرة دمّه المطلول
ينهرني:
ألا نفسٌ بنفسٍ ويحكمْ
دمٌ بدمٍ؟!!
يغلُّ في زنزانة الرّوح
ليوسعني بأنواع السقامْ
وأولياءُ الدمِّ قد أغفوا
على ريشِ النّعامْ
ومعاويه
يطوي اليقينْ
متلبّسا بالعجز
يفضحُ قائلهُ

لا ردَّ يُحمدُ من ذليلْ
فتقبّلوا الطعنات
بالشكر الجزيل
وتجنّبوا محض النظرْ
والعتب، عاقبةَ الصهيل
لبسَ القميصَ مضرّجاً
بدمِ القتيلْ
وباعَ في السرِّ
أصابع نائله *

* * *

لم يبقَ في الجسدِ النحيلْ
شبرٌ لطعنةِ خنجرِ
من كفّ لدٍّ أو خليل
من خطوه
من سطوه
من ظلّه العالي
مرامٌ لمُقيلْ
يا للجواد أضرَّهُ طولُ الجمامْ
أعيا الصديقَ مداجيا
وبغى العدو







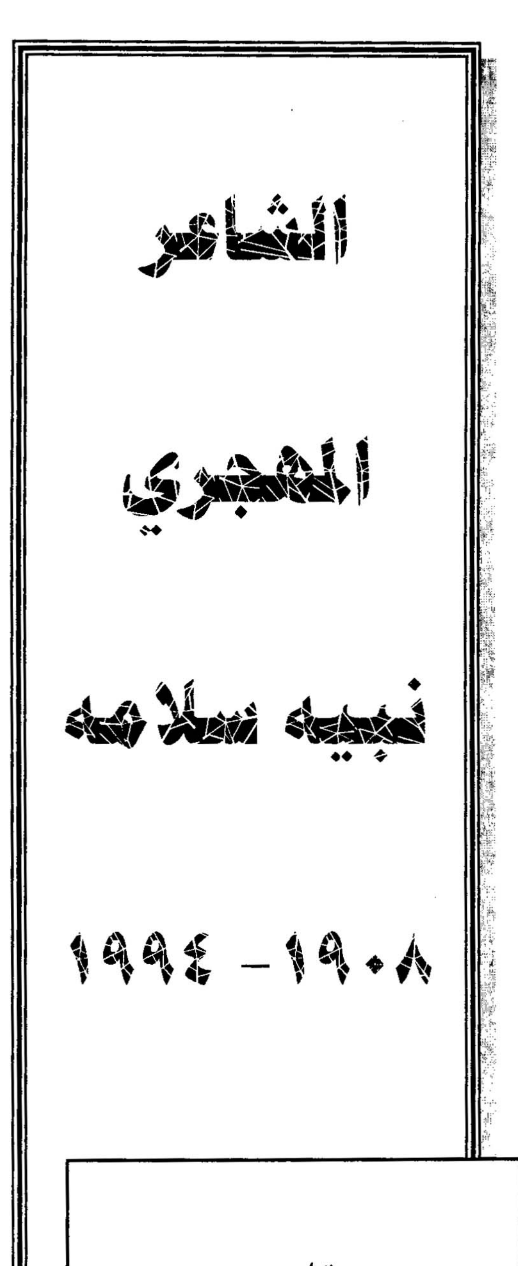
قالوا لهُ: مُتْ في غد
أو بعدَ غدْ
نَزفاً على حدِّ الحصارْ
وتعجَّلوا من مجلسِ الموتِ القرارْ
فتخيَّروا أكفانَهُ والوارثينْ
آسيَّهُ
ذاكَ النطاسيَّ الفرنسيَّ الأمينْ
تحسَّسوا رؤوسَكمْ
عربٌ خلقْنا من كَبَدْ
من لم يمتْ بالقصف
سهواً أو عَمَدْ
في حفرةِ الأسرِ المهينْ
بالسمِّ
ماتَ من الكَمَدْ
تتعدَّدُ الأسبابُ
والهونُ أحدْ

* * *

أيانَ طُلابُ الحقيقة؟!!
أين شاراتُ الحدادْ؟!!
أين الحشودُ بساحها؟!!
أينَ الزنودْ؟!!
تهزُّ قبضتَها الزنودْ
أين الشتائمُ والوعيدْ؟!!
من يحسبُ الأيامَ
من عمرِ الجريمةِ؟!!

من يَعُدْ؟!!
من قطَّرَ السمَّ النقيعْ؟!!
من خبَّأَ القفازَ والصلَّ
وآثارَ النجيعْ؟!!
من يشتري أعمارَنا؟!!
من ذا يبيعْ؟!!
وغْدان: هذا قاتلٌ أشرٌ
وذاكْ !!!
دمَّانِ: أزرقُ ينتخي كونٌ لهُ
ودمٌ يضيعْ!!!
تباً لشاهد زُوره
لقُضاته تبّاً لهمْ
لعُدوله
لطِّخْ بسُمٍّ مَن دمكْ
شاهتْ لهمْ هذي الوجوهْ
روِّ رماحك في غد لا ترحم
من ذا يجرِّمُنا غداً؟!!
من ذا يلومْ؟!!
إذْ ننثني
رأساً برأس نجتني
نقتصُّ من دمٍ بدمْ
نائله: زوج عثمان،
قطعت أصابعها
وهي تدافع عنه، وأرسلت مع
قميصه إلى معاوية..



نبيه سلامه أديب وشاعر وصحفي ومربي ساهم في تأسيس عصبة الأدب العربي في البرازيل وجامعة القلم.

ولد في حمص بتاريخ ٤/٣/١٩٠٨، والده نقولا سلامه ووالدته نبيهه قزما سلامه. تلق دراسة الأولى في أحد الكتاتيب الخاصة نظراً لاحتلال الحكومة التركية المدارس خلال الحرب العالمية الأولى.

دخل المدرسة الأرثوذكسية لأول مرة عام ١٩١٩ وبقي فيها حتى عام ١٩٢٢ ثم تابع دراسته الثانوية سنة ١٩٢٥ ونال شهادة أهلية التعليم السورية، وانتدبته وزارة المعارف معلماً في قرية (محردة) سنة ١٩٢٦ وبعدها درّس في حماه ودمشق وحمص.

عمل مراسلاً لجريدتي (ألف باء) الدمشقية و (لسان الحال) البيروتية خلال الأعوام ١٩٢٥ - ١٩٢٧.

اشترك مع مجموعة من أدباء حمص وأصدروا مجلة (البحث) عام ١٩٢٨ ولكنها لم تستمر طويلاً لأسباب مادية.

وفي عام ١٩٣٠ نشر باكورة إنتاجه رواية (جاكلين أو لذائذ الانتقام) وهي مقتبسة عن الفرنسية.

هاجر من حمص إلى البرازيل في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ وعمل محررا في جريدة (الرابطة الوطنية السورية) إلى أن أغلقت الحكومة البرازيلية جميع الصحف الأجنبية في أثناء الحرب العالمية الثانية.

عمل في التجارة بين عامي ١٩٤٠ - ١٩٤٦ إلى أن التهمت النيران محله فلجأ إلى بلدة (رانشاريا)

كان من أعضاء النادي الحمصي وانتخب خطيباً لمدة ثلاث سنوات متتالية.

تــزوج عام ١٩٥٦ ورزق ولدين هما سلوى وسامي.

وفـــي عام ١٩٦٤ اشترك في تأسيس (جامعــة القلــم) وعمل مراسلاً لجريدة حمص بــين عامـــي ١٩٦٧ - ١٩٨٨ وســـاهم في تأســيس (عــصبة الأدب العربي) في البرازيل وانتخب رئيساً لها لمدة سنتين وبمناسبة يوبيل الــنادي الحمــصي فــي عيده الخمسيني ألقى قصيدة بهذه المناسبة قال:

نـــادي العــروبة فـــي المهاجـــر
بـــدر بلـــيل الـــصيف ســـافر

هـــو كـــوكب يهـــدي الـــنفوس
وفتـــــنة تجلـــــو النواظـــــر

الطـــــيب فـــــي جنـــباته
مـــــتأرج والحـــب آمـــــر

يحـــنو علـــى النائـــي حـــنوّ
الأمهـــات علـــى الأصـــاغر

فيـــرى غـــريب الـــدار بيـــتاً
مـــشرق الأنحـــاء باهـــر

زار الــوطن عــام ١٩٧١ بعد أن ألحّ عليه الشوق والحنين إلى مسقط رأسه حمص وملعــب طفولــته وحلّ ضيفاً معززاً مكرماً في منزل الصديق المثالي الودود المرحوم سيمون كبّاش.

وأقــيمت علـى شـرفه عدة حفلات ترحيبية ومآدب سخية كان آخرها في مقصف (الجاردينــيا) بحمــص لــوداعه ضمّت السادة الأدبــاء والــشعراء هلال رزق سلوم وإدوار حــشوة ورفيق فاخوري ومحي الدين درويش وعون الدرويش وخالد بشار ومروان معماري وعبد الرحيم الحصني.

ولما قدم الأديب المهجري رامز شقرا إلـى حمــص فــي عام ١٩٧١ رحّب به نبيه والأصدقاء حيث ألقى الأبيات التالية:

عـــاد المهاجـــر بعـــد طـــول غيابه
فـــتواثب الماضـــي ببـــيض شـــيابه

وتقهقـــر الـــزمن المجـــدّ بـــسيره
ومـــشى الـــشباب على هشيم إهابه

مـــن للغـــريب وقـــد نأى عن موطن
ذاق اللذيـــذ العـــذب مـــن أطـــيابه

حمـــل الهـــوى دهـــراً فكبده الهوى
شـــوقاً تقلـــب فـــي أجـــيج لهابـــه

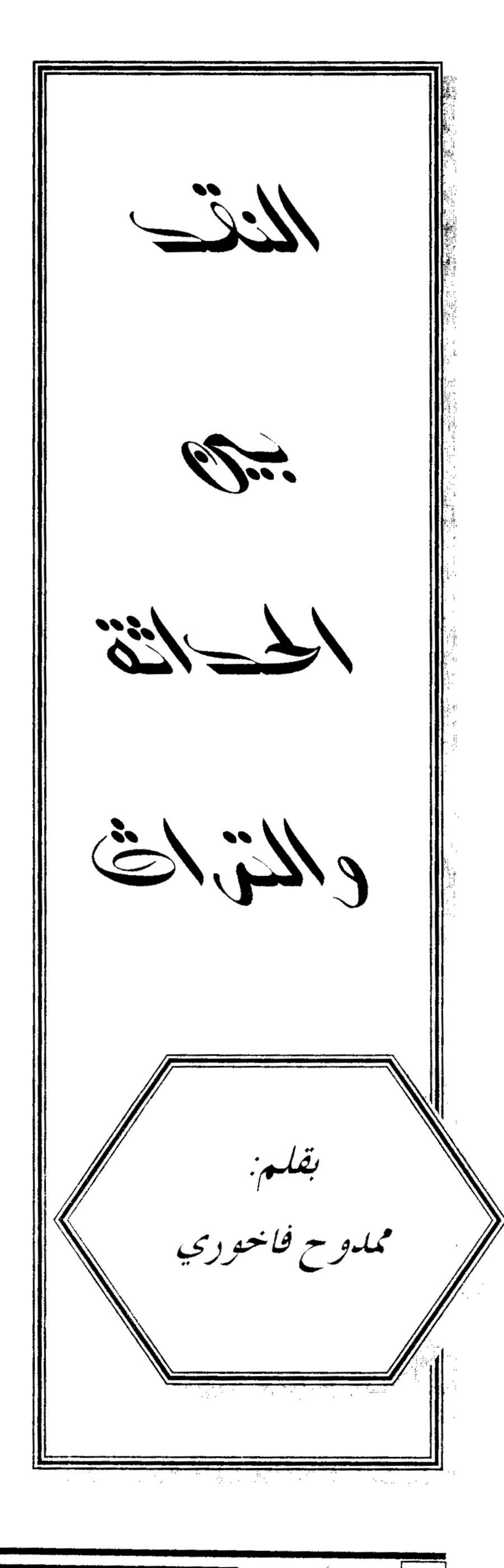
وقـــف علـــى الحـــب الصحيح فؤاده
والـــصب يلهـــو فـــي جحـــيم عذابه

أصدر ديوانه (أوتار القلوب) في سان باولو البرازيل سنة ١٩٧٣ وكتب تحت رسمه هذين البيتين:

لـــم يـــبق مني سوى رسمي فاتركه
لعلـــه ناقـــل بعـــضي لأحبابـــي

والخيـــر فـــي الرسم صمت لا يفارقه
فلـــيس يـــدرك مـــن يحظى به ما بي

وافــته المنية في البرازيل في كانون الثاني سنة ١٩٩٤ فرثاه كل من الأديب نواف حــردان والأديــبة نهاد شبوع والأديب نعمان حرب وخالد عواد الأحمد وسواهم.



كثر الكلام في النقد، وكثر المَلام!

فهـل من الحق أن نحمّله التّبعة كلَها أو بعضها، ونغضّ الطرْف عن أسباب ما يُوجَه إلـى الـنقد والـنُقّاد من تُهم، وما يُعلّق على كواهلهم من تَبِعات ثقيلة.

إنـنا أبـناء عـصر سبق لنا فيه أن نـسمّي العـصر الـسابق له ولعصر النهضة بعـصر الانحطـاط، ثم خفّفنا اللّهجة والعيار، فصار يُطلق عليه عصر الانحدار.. مع ملاحظة صغيرة هي أن التسمية كانت تُطلق غالباً على الـشعر، وعلى بعض أنواع الكتابة، ولكنها لا تمـسّ القـصّة والمسرحية لأنهما كانتا تطلاّن من وراء حجاب..

فمـاذا نقول في عصرنا هذا الذي كنا نأمُل فيه أن ننفض عنا غبار الانحدار، ونطلّقه طلاقـاً بائـناً لا رجعة فيه، ليظل أكثر سطوعاً وتألقاً؟..

وعودة إلى النقد وما يوجّه إليه وإلى بعـض نُقّادنا من لوم، وما يُحمّل من تبعات.. فالنقد كما يقول الناقد الأستاذ محمد عزام تابع للإبداع، وحيث يكون إبداع يكون نقد.. وبتعبير آخـر: لا يخلـق النقد من عدم، ولا يطلب من الـنقد أن يـنقد ما ليس له وجود. ولا أزيد.. فلستُ مولعاً بأن تهوي الهراوى على رأسي.. وقـد أكتفي بأن أعرض بعض ما قيل، وبعض ما يسّر لي من سنين، وهو أضعف الإيمان..

يقـول الـشاعر الأستاذ فايز خضور فـي بعض (محطاته)، وهو يتحدث عن مباضع جراحي النقد المستورد، وعن (النقد التفكيكي) وغيره:

من تلك الدراسات – النقدية – ما كان الـناقد يـستعرض فـيه عضلاته المعرفية..

ويمعن في التفكيك والتشريح حتى يتلاشى النص.."

شكوى الأستاذ خضور ليست بالجديدة، وأذكر أن بعض الشعراء كانوا يضيقون بالنقد، ولعلَّهم يَرون أنهم نقاد أنفسهم وكفى، فهذا الشاعر المرحوم عبد السلام عيون السود ينكر فضل النقد ويقول:

"في وسعي كلّ لحظة أن أبيع ألف ناقد من طراز مارون عبود بقصيدة واحدة من قصائد الأخطل الصغير، الشاعر كلّ الشاعر".

ومع أني لا أرى رأي الشاعر عبد السلام، ولا سيَما حين ينكر فضل ناقد وأديب كبير كمارون عبود، يفهم الشعر ويتذوقه، وأرى فيه مبالغة ربما اضطرَّه إليها موقف انفعاليّ من بعض النقاد آنذاك، وأرى أن مبالغة الشاعر عبد السلام ليست شيئاً بالقياس إلى مبالغات بعض من يتصدَّون لنقد الآثار الأدبية، ويُفترض فيهم أن يكونوا أدباء قبل أن يتزيّوا بزيّ النقاد، ولا يقوِّموا النصوص والمشاعر والنبضات بالرموز والإشارات، وبالجداول والإحصاءات، وبالمساطر والأشكال الهندسية والبيانات، كما يقول الدكتور عبد الله أبو هيف، كل ذلك باسم ما يسمونه الموضوعية، مع أن موضوعية النقد لا تنكر أثر العاطفة والخيال والوجدان ولا تتجاوزها، فإن دنا أحدهم من فن أدبي فبمشرطه ومخبره، لا بتذوّقه وتصوُّره..

ويقول الأستاذ سليمان عز الدين في مقال له عنوانه (النقد.. من العلمية إلى الطلاسم والأحجيات):

"لقد لبس هؤلاء النقاد مسوح العلماء، واستبدلوا أدوات النقد المعتادة بآلات حاسبة ومساطر وبيكارات.."

وهذا الضيِّق بمن يُعَدّ مقتحماً جدار العلمية لا يقتصر على عصر دون عصر، فهذا الآمدي – صاحب كتاب (الموازنة) – يقول: "إن العلم بالشعر قد خُصَّ بأن يدَّعيه كلّ أحد، وأن يتعاطاه من ليس من أهله"

ويقول: "إن ما لا يُدرك إلاّ على طول الزمان ومرور الأيام لا يجوز أن نحيط به في ساعة من نهار".

مدرسة الديوان.. ونقد العقاد والمازني

على أن المشكل لا يقتصر على (الجدار العلمية) فليس من الأدباء من ينكر جدارة (العقاد والمازني) في الدراسة والنقد، ومن لم يسمع بمدرسة (الديوان) أصحابها العقاد والمازني وشكري، ومن لا يذكر أو يتأدى إلى علمه خلال مطالعاته الأدبية حملة العقاد، قطب مدرسة الديوان، على أحمد شوقي، وحملة المازني على المنفلوطي، ثم حملته آخر الأمر على زميله (الديواني) الشاعر عبد الرحمن شكري؟.. فنحن لا ننسى أن العقاد المجدّد، يَغفل أول شرط من شروط التجديد، وهو أن يجاري الأديب عصره، وجريمة شوقي أنه كان ابن عصره، وأنه استطاع أن ينهض بالشعر أو يكمل نهوض (البارودي) به، وأنه حاول بتمثيلياته الشعرية أن يمضي شوطاً مع التجديد، ومع ذلك ينساق العقاد باسم الموضوعية التي يحرص عليها،

وما أظن أحداً ينكر أهميتها، إلى محاولة تحطيم شوقي، ناسياً أو متناسياً أن المرحلة الانتقالية الدقيقة التي مرّ بها شوقي لم تكن تسمح له بأكثر ممّا جادت به عبقريته، فبقي ذكره شاعراً، ولم يبق ذكر العقاد بين الشعراء، فهو يُذكر كاتباً مفكراً ضليعاً من الكتابة والفكر.. وقد لا يغلو من حكم على العقاد بأن رأيه في الشعر لم يكن بأحسنَ حالاً من شعره وشاعريته.. ونستميح القارئ عذراً إذا أوردنا له هذا المثال، فقد استهان العقاد بقول ابن منازي، وقد فُتن بمنظر جدول صافٍ رقراق:

ترُوع حصاهُ حالية العذارى

فتلمس جانب العِقد النظيم

فهو يرى فيه تكلُفاً ومبالغة، وينكر ما في هذه الصورة النفسية الحركية من تصوير جميل لردّ الفعل الخاطب من تلك العذراء المُدلّة بحلاها وحلاوتها.. والغلوّ مقبول، ومستحسن إذا كان لا يشكو من قلة الذوق وثقل الدم..

ولست في مجال الغضّ من قيمة الأستاذ الكبير العقاد، وليس فينا من يقلّل من قيمته ومنزلته.. ولكن الإنصاف والعدل يقتضياننا أن ننصب موازين صحيحة، وأول ما ينبغي لنا أن ننشده هو مراعاة موقع الأديب في عصره..

فأما الأديب الكبير الثاني الذي نهج في (ديوانه) نهج زميله العقاد، فهو المازني، فقد قسا على الكاتب (المنفلوطي) وجرّده من كلّ فضل، واتهمه بالتكلف والتعمّل والتلفيف وتصنّع العاطفة والصورة، ووصفه بأنه شؤم على أبطاله.. ووصف قصصه بالمنحوسة، وعبارته بالأنوثة.. وشبّهه بالحانوتيّ حيناً وبالندّابة حيناً آخر.. والخلاصة أنه مثّل به تمثيلاً كاملاً.. ولِمَ كلّ هذا؟ ألأن المنفلوطي - وكان صديق كلّ قارئ - اختار لنفسه أو اختار له قدره أن يكون كاتباً كغيره من عباد الله؟ هي جريمة المنفلوطي إذاً؟؟ لَكَم بكينا وانهمرت دموعنا مدراراً ونحن نقرؤه.. فهل نبكي اليوم إذا حاول أحد أن يجمّد دموعنا في عيوننا؟..

وهنا نقول أيضاً: إن كاتبنا الكبير المازني نسي أو تناسى أن المنفلوطي - إذا جرّدناه من كل شيء، وما كنا لنفعل هذا ودموعنا ما تزال تسري في مآقينا - لم يكن إلاّ ابن عصره.. أو إذا شاء كاتبنا الكبير (ضحية عصره) مع التواضع الشديد.. أفلا كان من العدل والإنصاف أن نزنه بالميزان العادل؟ وبميزانِ مَن تلاه من السّعداء الذين أُتيح لهم من أسباب الاطلاع على آداب الغرب (السكسونيّ) ما لم يُتح للمنفلوطي الذي استطاع، مع ذلك - ولنكن منصفين - أن ينهض بالنثر، كما نهض شوقي بالشعر، ويخلّصه من كثير من شوائبه.. وسعى وراء الجديد - على قدر ما في وسعه وطاقته - فأخرج لنا (العبرات)، وفيها قصص مترجمة.. ونعم.. كانت حزينة، وكان عنوانها نفسه حزيناً.. لأن العصر كان عصر حزن.. ولأن المنفلوطي كان صاحب عاطفة تكاد تسيل دموعاً من عينيه ومن شرايين قلبه..

ولم يسلم غير المنفلوطي من هذه (التطبيقات الديوانية) المرتجلة التي استعارها المازني، متعجّلاً وفرحاً، من قراءاته الكثيرة في الأدب الإنكليزي المختلف بطابعه وطبيعته، فضلاً عن اختلاف البيئة.. والقوم، فاكتشف ما

سمّاه (عبثاً لفظياً) - وعفوك يا مهيار - في قول الشاعر مهار الديلمي الذي لا ينقضي إعجاب الناس به وبعذوبة شعره ورقّة عبارته:

اذكرونا مثل ذكرانا لكمْ
رُبَّ ذكرى قرّبت مَن نَزحا
واذكروا صبّاً إذا غنّى بكُمْ
شرب الدمعَ وعاف القدحا

أيُّ لفظ.. وأيُّ جمال؟ وأيُّ سرّ؟ هل يبدو جمال البيتين في التعبير وحده، أو في اختيار اللفظ.. (غنّى بكم) و (عاف القدحا).. أذكر هنا شعراء معاذ الله أن نقول: إنهم كانوا لفظيين.. إنهما كانوا يحسنون اختيار الألفاظ.. فاللفظ وحده أحياناً دليل من أدلّة الشاعرية.. خذ مثالاً قول (بدوي الجبل): "تأنّق الذلّ حتى صار غفرانا". خذ لفظ (تأنّق.. أليس وحده قصيدة؟!

إنه سرٌّ من أسرار العبقرية.. لا يدركه إلاّ من تلبّسها أو تلبّسته.. والأمثلة كثيرة كثيرة، في قديم الشعر وجديده.. ومع ذلك تجد من يتشدّق.. ومن ينكر.. ألم يقولوا: (محنة الأدب)؟ فهذه محنة من محنة!

اذكرونا مثل ذكرانا لكمْ..

إذا كان من الحق أن لا طائل كثيراً في معنى البيتين، فإن فيهما من أسرار البيان الرفيع ما نقف دونه عاجزين عن تحديده.. ولعلهم أصابوا حين سمّوا أمثاله (بالسهل الممتنع).. وقانا الله من امتناع الأحاسيس والأذواق..

الموهبة أولاً

المشكل - كما يبدو وكما سبق القول - في التهالك على تطبيق معايير النقد الغربي الحديث بحذافيره وبكل ما فيها، من غير النظر إلى الفرق بين أدب أمّة وأمّة، وظروف أمّة وأمّة، وبيئة أمّة وأمّة. وهنا أجيز لنفسي أن أقول: إن الشاعر، والأديب عموماً، ينبغي أن يكون ناقد نفسه أولاً، ثم يكون لمن شاء أن يتصدّى له بالمدح أو القدح.. بسلاح وحيد ما ينبغي له أن يملك غيره - إذا كان ناقداً حقاً - سلاح العدل، لا سلاح التمثيل والذبح.. ولا يكون النقد، مع ذلك، جرد تطبيق مقاييس نظرية.. بل هو قدرة على السفر في النص واكتشاف دلالاته، ورموزه، وإشاراته. وما يختزنه من إيماءات وظلال، وهذه تحتاج إلى موهبة نقدية، وحساسيات جمالية عالية، وثقافة شمولية".

وها هنا وقفة أرجو ألاّ تطول، ففي الجعبة الكثير مما قد يضيق به الكشكول.. كثيراً ما تطالعنا عناوين مثل: الحداثة - القديم والجديد - نحو أدب جديد - نريد أدباً جديداً.. و.. ما بعد الحداثة.. إلخ.. كأن القارئ يجهل أن ثمة قديماً وجديداً في كل عصر.. وفي كل شيء.. ولكن، ما هو هذا الجديد؟ وأين هو في نتاج هذا الأدب أو ذاك.. في هذه القصيدة أو تلك؟ وأين ممارسة هذا الجديد الحقّ إن وُجد، وإخراجه في صورته الحيّة المبدعة؟ فذلك ما لا نجده إلاّ عند قلة قليلة من المجددين الحقيقيين.. أو أصحاب (الحداثة) إن شئت.. فأما الكثرة، فما كل كثرة تملأ العين، وتلبيّ حاجة النفس، وإن ملأت صفحات كثيرة في

بعض صحفنا العربية التي يهمها أن تزيّن صفحاتها بأبدع ما تجود به قرائح بعض (الحداثويين)..

حدثني أحدهم، والحديث ذو شجون، أنه قصد مرة إحدى هذه الصحف، حاملاً معه بعض القصائد والقصص والمسرحيات، فقد كان متعدد المواهب لا يشغله عن فنِّه الأدبي شاغل، فسأله المسؤول عن الصحيفة، وهو يردُّ إليه أعماله الإبداعية: هل عندك دراسات؟.. ولم ينس أن يبشّ في وجهه بابتسامة عريضة..

قال: وخرجت وأنا لا أكاد أميِّز الطريق..

حديث المجاملات

وقد يؤخذ على بعض من يتصدّون للنقد، ويتصدَّرون مجالسه وصفحاته، أن شعورهم رقيق جداً، فهم رفيقون بزبونهم، رقيقون معه، ولو كان إمّعة..

يدعو الدكتور عادل فريجات في مقال له عنوانه (بؤس المجاملات النقدية) إلى الوقوف في وجه الرداءة والتطاول على الإبداع، ويذكر (الكثرة المرعبة) التي يحظى بها شعر هذه الأيام، ويقول: "كيف أثق بناقد لا يكتب إلاّ عن مريديه؟ وآخر يكتب عن فلان أو فلانة، وهو يعرف أنهما معاً بلا موهبة؟ وكيف يجوِّز القائمون على النشر كتابات لكتّاب وكاتبات وهم يعرفون تمام المعرفة أنها مكتوبة بأحبار غيرهم، وعقول غيرهم، وبخطوط غيرهم أيضاً.." وينتهي إلى القول: "وكما أن بعض الحب يُعمي ويُصمّ عن المساوئ، كذلك بعض الكره يعمي ويصمّ عن المحاسن، جرياً مع قول من قال:

وعين الرِّضا عن كل عيب كليلةٌ
ولكنَّ عين السخط تبدي المساويا

فتعود بي الذاكرة إلى ما قرأت يوماً عن (عزَّة) حبيبة الشاعر (كُثيِّر)، صاحب الأبيات الثلاثة الرائعة:

ولمَّا قضينا من منى كلَّ حاجةٍ
ومسَّح بالأركان مَنْ هو ماسحُ
وشُدّت على حُدْب المطايا رحالنا
ولا يعلم الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطيِّ البطائحُ

يدخل (كُثير) على (عزّة)، فتقول: ما ينبغي أن يُؤذن لك بالجلوس، فيقول دهشاً: ولِمَ ذلك؟ فتجيب: لأنني رأيتُ (الأحوص) ألينَ جانباً عند الغواني منك في شعره، وأضرع خدّاً للنساء.

وقرأت له أبياتاً للأحوص، فقال كُثير: قد والله أجاد، فماذا استقبحت من قولي؟ فقرأت له أبياتاً مغايرة، وقرأت له قوله:

وَددْتُ وبيتِ اللهِ أنَّكِ بكْرةٌ
هجانٌ وأنّي مُصْعَبٌ ثم نهربُ
كلانا به عُرٌّ فمَن يرنا يقُلْ
على حسنها جرباءُ تُعدي وأجربُ
.. إذا ما وردنا منْهلاً صاح أهلُهُ
علينا فما ننفكُّ نُؤذى ونُضْرَبُ

ثم قالت: ويحك! لقد أردت بي الشقاء، أو ما وجدت أمنية أوطأ من هذه؟ فخرج خجلا.

إن الحب لم يُعمها ولم يُصمَّها، فقالت وانتقدت، ولم يمنعها حبّها كُثيّرا من انتقاده ومن التعبير عمّا تجد. ويلاحظ أن المعنى الآخر الذي يعجب (عزّة) راق عددا من الشعراء، منهم الفرزدق وأبو صخر الهذلي في أبيات له مشهورة..

صحة المعاني

ويقودنا هذا الخبر النقدي الطريف إلى شيء من الحديث عما يمكن أن نسميه (صحة المعاني) أو أخطاءها، وله عندهم جانب هامّ، وينصبّ عليه كثير من النقد (الجزئي) العفوي.

مدح أحدهم (زبيدة) بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، فقال:

أزبيدة بنة جعفر
طوبى لزائرك المثاب
تعطين من رجليك ما
تعطي الأكفّ من الرّغاب

فلم يستطع خدم جعفر بعد سماعهم هذا الشعر الغريب أن يقفوا جامدين، فوثبوا إليه يضربونه، فمنعتهم زبيدة من ذلك، وقالت: أراد خيراً وأخطأ، وهو أحبّ إلينا ممن أراد شرّا فأصاب. أعطوه ما أمّل، وعرّفوه ما جهل.

وتذكّرنا هذه الحكاية بحكاية مماثلة، إذ أنشد الشاعر علي بن الجهم ممدوحه قائلا:

أنت كالكلب في حفاظك للودّ، وكالتّيس في قراع الخطوب..

فهمّوا بقتله، فمنعهم الممدوح، وجادت قريحته بعد جهامته بقصيدة عذبة مطلعها:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبْن الهوى من حيث أدري ولا أدري

مثل هذه (الحكايات الشعرية) يحتوي على نقد عفوي بريء، ولكنه كما قدمت نقد جزئي، يتناول بيتا أو شطرا من بيت، على أن في هذا النوع من النقد ما يُطرف ويُعجب، ونسوق هنا بعضه ففيه جلاء لبعض جوانب النقد القديم:

أنكر الخليفة عبد الملك بن مروان على (كُثيّر) قوله، وكان الخليفة مولعا بالشعر والأدب، ويكثر من مجالسة الأدباء والشعراء، ويناقشهم:

على ابن أبي العاصي دلاصٌ حصينةٌ
أجاد المسدّي سردها وأدالها

فقال عبد الملك: وصفتني بالجبن! هلا قلت كما قال الأعشى، وذكر له بيتين يقول فيهما:

"كنت المقدّم غير لابس جنّة"..

ومن المعروف أن من مذاهب العرب المحمودة، كما يقول القاضي الجرجاني، ترك التحصين في الحرب، وأنهم يرون الاستظهار بلجُنن ضربا من الجبن.

ويقول الأصمعي: إن فرسان العرب لا يحفلون بسبوغ الدروع وحصانتها.

ومما ضُبط من أخطاء المعاني وطرافتها قول أحد الأعراب مادحاً:

إنَّ أبا الهيجاء أرْيَحِيٌّ
للرِّيح في أثوابه دَوِيٌّ

فقال الممدوح: عنى أنني أفسو! فقال الأصمعي: انظروا كيف ضاع هذا البيت!

ولطه حسين رأي في صحة المعاني، فهو كما يقول لا يأبه للمعنى وحدَه إن لم يكن محمولاً على جناح لفظي جميل؛ وهو ينتقدمَنْ يسمِّيهم (أتباع المعاني) - في الشعر - "فهم لا يطلبون إلى الألفاظ إلاَّ أن تؤدّيَ لهم معانيهم، وتعرب عنها إعراباً صحيحاً لا لبسَ فيه"، ويقول في نقد بيت للعقاد وردت في قافيته كلمة (طين): "إن ذوقي هذا الذي تأثر بأدبنا العربي القديم ينفر بل يفرّ من هذا الطين الذي يُقرن بالقُبلة".

ولا شك أن القضية ليست قضية قديم وجديد فقط، وإنما هي قضية ذوقية أيضاً، فمن حق الناقد أن ينقد المعاني جزئيا، بعد أن يفرغ من استكمال نقد الأثر الأدبي مجتمعا، أي نقدا كلّياً، ولكن من حقه أيضاً، بل من واجبه، أن يبحث عن جمال اللفظ والتعبير، وطه حسين هو نفسه الذي يقترب من رأيه هذا من رأي نقديّ عام يقول فيه: "إن النقد علم، ولا أحبّ أن يكون علماً، وإنما أرى أن يكون النقد مزاجا من العلم والفن".

وفي هذا الرأي تمسك محمود بالتراث ولحمة قوية بين الشكل والموضوع، وبين قديم الأدب وجديده، وتذكير لبعض من يقطع الصلة بالتراث خوفاً - كما يقول - من الوقوع في التقليد، ناسياً أن التقليد يكون في الجديد كما يكون في القديم، وإنما الشأن، في الفنون كلها، أدباً كانت أو موسيقا أو رسماً، في الأصالة. فلنفتش دائماً عن الجوهر الأصيل، لا يعنينا على أي نحو صُنع، وعلى أي صورة طُبع، وعن العاطفة الحقة، لا يهمنا أيَ نحو نَحَتْ، وأيَّ مركب ركبتْ، فسماعك اللحن - مثلاً - ليُسلّيك أو يُشجيك، وليفرحك أو يبكيك.. وسيَّان بعد ذلك أجاء من نفثة ناي أم لمسة كمان، ومن نقرة عود أو ضربة بيان..

* * *

فلا نتهافتْ على موائد الغرب واتجاهاته النقدية، ولدينا هذا الإرث العظيم ولْنَجْر مع نقدنا الذي يتطور بتطوّر الأدب، ينهض بنهوضه، ويجمد بجموده، ولا يأخذْنا الغرور فننكر الأصالة والأصل، ولا يظنّنَ أحد أن قراءة الجديد تُغني عن قراءة القديم، فالأدب - والفن عموماً - كالبناء لا بدّ له من أساس مكين، وتواصل متين.

روى لي أحدهم - ولم يكن أديباً بل من هواة الأدب - أن أحدهم - وكان كثير الادّعاء - زلّ لسانه كعادته، فقرأ صفي الدين الحُليّ، بدلاً من الحلي، ومع ذلك وجد من يرقّعها له قائلا - ومن الذكاء ما قتل - : وما المانع؟ ألم يكن صفيّ هذا من الذي يحلون شعرهم بالمحسّنات والزخارف والحُليّ اللفظية؟ أكثيرٌ عليه - والحالة هذه - أن يُلقب بالحُليّ؟!

قال محدّثي: ولم يكن عليّ أمام هذا التقرير الحازم الجازم، إلا! أن أطأطئ الرأس ساكتا، لأن للجهل سطوة حين يبلغ درجة التفاصح والتعالم، ويخترق جدار الفهم.. فما رأيكم؟....




إلى قلب ...

شعر: الدكتور: أبو الهدى فؤاد الأسعد

سرحتَ في ذهولي   أبهى من الغزالِ
تتيه في الجمال   كنفحة العطورْ..

* * *

سرحت في ذهولي   يا مرفأ الأمانِ
يا بسمة الزمانِ   يا رقصة الغديرْ

* * *

سرحت في وصالي   وزورقي يميلْ
مجذافه البليلُ   تهليلة الطيورْ

* * *

وشعرك الحبيبُ   ترتيلة تطيبُ
سلافه يذوبُ   كشمعةٍ طهورْ..

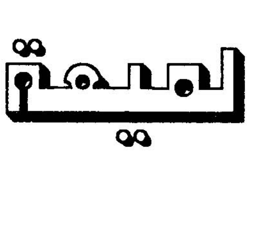
* * *

مواكبٌ من سحرِ   غماغمٌ من شعرِ
ولاعجات صدري   عتيّة.. الهديرْ..

* * *

يا غالي المرادِ   يا عابر الودادِ..
في مقصف البعاد   كاس الهوى تدورْ



عباس عمارة

زهرة أصابها الطلل

فزادها تألقاً والتماعاً

بقلم:

محمد عيد الخربوطلي

(إذا كان نزار قباني شاعر المرأة، فإن لميعة عباس عمارة هي شاعرة الرجل، تتسم بالصراحة في علاقتها بالرجل) بهذه الكلمات قدمها الشاعر شوقي بغدادي عندما زارت سورية عام ٢٠٠١م، واستهلت الشاعرة أمسيتها بقصيدة (سائلة)..

لميعة عباس عمارة التي قرأت الكثير عنها ولها، فأعجبت بها كغيري، فكانت كما قيل عنها ومازالت، أجمل الجميلات وأشعر الشاعرات أسمعتنا شعراً لا يستطيع غيرها الإتيان به، خاصة أنها قرأت شعراً من ذاكرتها، فكان كل الحضور مشدودين لها، وكأن على رؤوسهم الطير، وأول شيء عرفته عنها أنها صاحبة أجمل عيون زرق في العالم يقول الشاعر سميح حمادة في مقابلة معه: كنا في مكتب نزار قباني في بيروت في الستينات مع بعض الشعراء والأدباء، وكان بيننا أحمد الصافي النجفي والشاعرة العراقية لميعة عباس عمارة صاحبة أجمل عيون في العالم، واتفقنا على لعبة شعرية مفتوحة، وتقوم اللعبة على من يستطيع أن يرتجل أجمل شعر في عيني لميعة، وهي تقرر من الفائز، وتقدم له هدية فامتنع البعض، وارتجل البعض الآخر شعراً، إلى أن وصل دوري فقلت فيها، وأنا المفتون بعينيها شعراً منه:

أعيناك السما ظفرت
بأفق منهما أزرق
أم الأبحار قد غارت
وفيها المنتهى يغرق

عميق غور هذا البحر
لكن رغبتي أعمق
أنا السبحّار إن أبحرت
في عينيك قد أغرق

قال: فكنت أنا الفائز، فأهدتني قبلة أمام الجميع، وبعد مدة ردت علي بأبيات جميلة ومنها قولها:

أبيات شعرك يا سميح غناء
قد رجعت أنغامها الأصداء
أفديك قل لي كيف صغت روائـ
ـعاً ما صاغها من قبلك الشعراء

إنها شاعرة العراق لميعة عباس عمارة، المولودة في قرب الشواكة في الكرخ سنة ١٩٢٩م ودرست فيها، وأخذت الثانوية العامة في بغداد، وحصلت على إجازة دار المعلمين العالية سنة ١٩٥٠م وعينت مدرسة في دار المعلمات.

أمضت لميعة زمن طفولتها مريضة، وكان لاغتراب والدها عن العراق أثر عميق في نفس الإبنة الشاعرة، وخاصة أنها التقته لشهرين فقط ثم توفي، لكنها بقيت وفية لذكراه في شعرها، وقد بدأت لميعة تقول الشعر في سن مبكرة فكان عمرها ١٥ سنة، عندما أرسلت بواكيرها الشعرية إلى إيليا أبو ماضي الذي تربطه بوالدها صلة صداقة واغتراب في بلاد المهجر، فأعجب بشعرها وصار يشجعها وسماها الشاعرة الصغيرة، وبدأت بالشعر الهجائي الساخر، وبقيت روحها الساخرة ظاهرة في شعرها، أقامت سنين عديدة في بيروت قبل أن تهاجر، وأصدرت سبع مجموعات شعرية مع أنها انقطعت زمناً عن الشعر بعد زواجها وإنجابها أربعة أولاد.

يقول عنها د. بدوي طبانة: (لميعة.. عركتها أنياب الدهر، ومخضتها نوائبه منذ طفولتها، فكانت كالزهر يصيبها الطلل، فيزيدها تألقاً والتماعاً، وتنال منها الحوادث فتشحذ عبقريتها وتثير كوامن مواهبها).

أما أدهم الجندي فقال عنها: لميعة.. تمتاز بقوة الإرادة والصبر، فقد درجت وهي في مستهل حياتها الفنية، وعصفت حولها ريح الأقدار لكنها أبت إلا أن تنال من ميدان الأدب والشعر، إنها شاعرة راسخة القدم، تريد أن تتحدى القدر، وصفت مرة شجرة وحيدة في طريق فخاطبتها قائلة:

تمر السنون ويمضي البشر
وتبقين هازئة بالقدر
تراقصك الريح في سيرها
ويغسل فرعك هطل المطر

وعكفت لميعة تدرس الكتب الأدبية. وواكبت على قراءة الشعراء المتقدمين فصار اسمها يقترن باسم البياتي والسياب، والدارس لشعرها يجد فيه جرساً لطيفاً مؤنساً يملأ الآذان أنغام القيثار، وآهات الأعواد وترانيم الطيور وشدو البلابل، وفي شعرها صدق التعبير، وحرارة العاطفة، قالت عنها روز

غـريب: شعرها ذو شخصية واضحة، يستوفي تجارب عاشتها وعانتها تقول في قصيدة /بحث بلا جدوى/:

أيـن الهواء؟ دخان النخل بلا جدوى
أيـن الـورود فقلبـي الـيوم ظمآن
أيـن الغـذاء لنفـسي فهـي جائعة؟
هـيهات أن يـشبع الـوجدان إنسان
الـبحث عمـن تـريد النفس أتعبني
والـيأس بعـد عـناء البحث أضناني
لا الناس ترضى بهم نفسي وتعشقهم
ولا الملائكـة الأبـرار ترضـاني

ويقول سلمان هادي آل طعمة: عندما سـمعتها فـي مهـرجان المـربد التاسع عام ١٩٨٨ رأيـتها ورأيـت كـيف ينـبض قلب الـشاعرة، وتجـيش نفسها من رغبات آمال ونـزعات وعواطف وأحلام، تسكب في شعرها ألواناً وألحاناً رائعة نجدها في مجاميع شعرية، فـشعرها مائـدة مـن الفاكهة النضرة الشهية تقـول لمـيعة فـي قـصيدتها (علـى الخليج العربي):

أحـن إلـى بغـداد مـاذا تـركت
بـبغداد مـن بهجـة يـا حنـين
وكـم لـيلة شـتت بينـنا
أكانـت شـهوراً أكانـت سـنين
وهـذا الخلـيج العتـي الطـوح
تهـادى علـيه الخـيال الـسجين
ألا تغـسل الجـرح أمـواجه
وتغـرق فـي لجتـيه الـشجون

وهكـذا فكما تميزت لميعة بحضورها المنفـرد في المشهد الشعري العربي فقد كانت حريـصة علـى حـضورها الأنثوي، تقول في غزلياتها من قصيدتها شهرزاد:

سـأهواك حتـى تجـف الدمـوع
بعينـي وتـنهار هـذي الـضلوع
مـلأت حياتـي فحـيث الـتفت
أريـج بذكـرك مـنها يـضوع

وتقول في قصيدتها جحود:

أهواك عنيفا جبارا
أهواك كما أنت
كن بركاناً أو إعصاراً
كن ما شئت
أهواك بكل مساويك المنسيه
وبكل كلومك في قلبي
يقصينا الضوء، وتجمعنا الأمسيه
فأمد شفاهي في عجل
للثغر المترع بالقبل
وأنام.. أنام بلا تعب
أهواك.. وأغرق في ذنبي....